الجامعة الاردنية
كلية الاداب

الرواية العربية في المغرب الاقصى

من ١٩٥٦ - ١٩٨٣

" دراسة سوسيو/تاريخية "

في ضوء علم الاجتماع الادبي

اعداد الطالب :

ابراهيم محمود خليل

٨٣/٠١٦٦ آن

اشراف

الاستاذ الدكتور: محمود السمرة

استاذ النقد الادبي والبلاغة في قسم اللغة العربية
نائب رئيس الجامعة لشؤون الكليات الانسانية

قدمت هذه الرسالة استكمالا لمتطلبات درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها بكلية الاداب في الجامعة الاردنية ونوقشت بتاريخ ٩ - ١١ - ١٩٨٥م

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- الاهـــــــداء -

" الـى الاستـاذ الكريـــم الدكتـور :- محمود السمـــرة "

مـــــع المـــودّة -

. ابراهيم

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تعود صلتي بهذا الموضوع الى الفترة من ١٩٧٧ -١٩٨٢٠ حين كنت اعمل مدرسا في المغرب . وقد اطلعت خلال هذه الفترة على نماذج كثيرة من الادب المغربي في قديمه والحديث . وكتبت دراسات عديدة نشرت في بعض الصحف والدوريات العربية عن القصص المغربي والروايات المغربية (١) ، ولاحظت أن النتاج القصصي المغربي ، على الرغم من تطوره كمّا ونوعا ، لم يحظ بالدراسة العلمية الاكاديمية باستثناء بعض الباحثين الذين تطرقوا للرواية المغربية مثل الدكتور سيد حامد النساج في كتابه " ادب الرفض والغضب في المغرب الاقصى " وكتابه " بانوراما الرواية العربية الحديثة " . الا ان هذا التناول كان جزئيا يفتقر الى الشمول والتخصص.

وصدر للكاتب القاص سعيد علوش - وهو مغربي - كتاب بعنوان " الرواية والايديولوجية في المغرب العربي " وقد تناول الموضوع في تونس والجزائر وليبيا والمغرب الاقصى ، وجاء كتابه هذا عاما ، غير تخصصي ، وهو طي بالانطباعات الشخصية عن الكتب والكتّاب . وفي كتابه " مع الادب والادباء " تطرق عبد الكريم غلاب للنتاج القصصي المغربي الا أنه لم يتجاوز المقالة الصحفية التي تتناول نماذج منفردة من النتاج القصصي بحيث لم تكن لهذه المقالات قيمة علمية كبيرة .

أما الدكتور عبد الكبير الخطيبي ، وهو يؤلف ابحاثه باللغة الفرنسية فقد صدر له كتاب " الراوية المغربية " وهو يشبه كتاب سعيد علوش ، من حيث أنه يتناول الراوية في المغرب العربي الكبير ، وهو لا يدرس الا النتاج المكتوب باللغة الفرنسية ، مما يجعل هذا الكتاب خارج حدود الدائرة التي ارتأينا البحث فيها وتسليط الاضواء عليها . وفي كتابه " المصطلح المشترك " يتناول ادريس الناقوري ، وهو ناقد مغربي شاب ، بعض الاعمال الروائية ، ولكن هذا التناول يسيطر عليه الطابع الصحفي ، وما من شك في أن كتاب " سلطة الواقعية " لعبد القادر الشاوي - وهو ناقد مغربي شاب ايضا - تناول بعض الروايات الجديدة ، غير أن هذا التناول جزئي لا شمولي .

---

(١) انظر مثلا الاقلام (بغداد) ع٢ك١ ، ١٩٨٠ ، ص ص ٤٠-٥٥ ، والمعرفة دمشق ، ع ٢١٩ س١٩ ، ١٩٨٠ ، ص ص ٢٢٦ - ٢٣٣ ، والفكر (عمان) ع ٧١ ايلول ، ١٩٨٤ ، ص ص ١٢ - ٢٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ونظرت في النتاج المغربي الروائي المتوفر بين يدي ، فوجدته يستحق أن يدرس دراسة علمية أكاديمية ، واتخذت من عام الاستقلال (١٩٥٦) بداية زمنية للبحث ، لما لهذه المناسبة من أثر جليل في الحياة الثقافية ، والفكرية ، في المغرب الاقصى . وجعلت من رواية " في الطفولة " لعبد المجيد بن جلون ، التي صدرت طبعتها الاولى عام ١٩٥٧ أقدم رواية تتناول ضمن هذه الدراسة ، رغم ظهور أعمال مبكرة قبل هذا التاريخ ، وجعلت من عام (١٩٨٣) نهاية المطاف في البحث لانه لن يكون بالامكان متابعة النتاج الروائي بعد هذا التاريخ نظرا لظروف النشر ، وبعد المسافة .

أما حدود البحث الجغرافية فقد تمثلت باستخدام كلمة الاقصى لتميّز المغرب عن المغرب العربي الكبير الذي يضم الجزائر وتونس وليبيا ، وترد في العنوان كلمة العربية منعا من اللبس الذي ينشأ عن وجود رواية أخرى مكتوبة باللغة الفرنسية التي لن أتطرق اليها في البحث الا من حيث هي عامل من عوامل التأثير في الفن الروائي المغربي .

وقد جعلت دراستي هذه في ستة فصول الاول منها للمدخل المنهجي، وقدمت نظرة تاريخية على اجتماعيات الادب ، وانتقلت الى بلورة المفهوم الدراج حول علم الاجتماع الادبي The Sociology of Literature وركزت الحديث في منهج لوسيان غولدمان (Goldmann) مبرزا المقولات الرئيسية في هذا المنهاج الذي يعرف بالبنيوية التكوينية (Genetic Structuralist Modle) وعبرت من خلل الحديث عن المرتكزات الاساسية لهذا المنهج عن عمق اقتناعي بمبادئه ، وتمثلي لأجوائه ، ومناخاته ، في اثناء اعدادي لهذا البحث، وافضت في الحديث عن " رؤية العالم " (World View) والذات الجمعي ، لما لهما من أثر واضح في دراستي للروايات المغربية المتوفرة ، وهي تفصح عن مثل هاتيك الافكار التي عبر عنها غولدمان .

وانطلاقا من مقولة غولدمان ، وهي ان الادب لا يمكن أن ندرسه في معزل

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عن السياق التاريخي والاجتماعي الذى أفرزه ، فقد خصصت الفصل الثاني من البحث حول هذا الموضوع . وتحدثت أولاً عن مغرب القرن التاسع عشر بإيجاز لا يخل بالغرض ، ثم انتقلت للحديث عن مغرب القرن العشرين ، وما احاط به من ظروف على المستويين التاريخي والاجتماعي . وانتقلت من الحديث عن الحماية ، وسياسة الفرنسة التي اتبعها المستعمرون ، ثم السياسة (البربرية) ، والكفاح ، وسلطت الضوء على نشأة الحركة الوطنية ، مبرزا التكتلات الحزبية والتنظيمات الحزبية ، وما طرأ عليها من تطور أو انشقاق ، وما حدث على برامجها من تغيير نحو اليمين أو اليسار ، نحو الاعتدال أو التطرف ، واثر ذلك في المجتمع المستقطب ضمن هذه التوجهات الايديولوجية التي كان لها اثرها العميق في الادب . واشرت في هذا الفصل إشارات موجزة لانعكاس السياق التاريخي الاجتماعي على النتاج الروائي ، ممثلا برموزه الكبرى : (عبد الكريم غلاب ، مبارك ربيع ، عبد الله العروى ، وآخرين) .

ولما كانت مقولات غولدمان الأساسية تركز على أن الرواية تمثل بنية صغرى تندمج مع غيرها من ألوان الانتاج الثقافي ، لتشكل في مجموعها بنية ذهنية لشريحة اجتماعية معينة في حقبة زمنية محددة ، فقد ارتأيت ان أقف وقفة طويلة امام السياق الثقافي المغربي ، وموقع النتاج الروائي من هذا السياق ، وهذا ما خصصت له الفصل الثالث : "الرواية المغربية في السياق الثقافي" .

، وفي هذا الفصل تحدثت عن اشياء كثيرة : منها مشكلة التعليم في المغرب، ومشكلات القراءة ، والعوامل المؤثرة في الاشكال الابداعية ، وعوامل ظهور هذه الاشكال او ضمورها ، مسترشدا بالوثائق والنصوص المستمدة من المصادر والمراجع الاصيلة ، لأصل الى كيفية ظهور الأعمال الروائية والمناخات النفسية والثقافية التي شجعت على ولادة هذا الفن ، ثم عرضت لتطور الرواية المغربية تاريخيا الى أن توقفت عند بعض الاعلام البارزين الذين جعلت منهم موضع اهتمامي ودراستي القائمة على وضع هذه الروايات في سياق شمولي متكامل اطلقت عليه كلمة "المتن الروائي المغربي" ممثلا بما أطلقه محمد بنّيس على الشعر المغربي المعاصر في رسالته الجامعية "ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب" .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

" اما الفصول "الرابع والخامس والسادس" فقد خصصتها لدراسة الاعمال الروائية ، فتناولت في الفصل الرابع الاعمال الروائية المشدودة الى التاريخ المغربي ، أي تلك الاعمال التي غلب عليها الوعي التاريخي دون الوعي الاجتماعي . ممثلة بأعمال عبد الكريم غلاب ، ومبارك ربيع ، واحمد زيّاد ، رغم ان روايات مبارك ربيع لم تغفل عن العنصر الاجتماعي ، بل استوعبته في صياغة رؤيتها للأحداث. ولاحظت في هذا الفصل كيف أن منطلقات ، عبد الكريم غلاّب واحمد زيّاد السلفية (الاستقلالية) قد اسهمت في صياغة رؤيتها للأحداث ، بحيث جاء موقفها الروائي تمجيدا للواقع ، سواء الذى سبق الاستقلال أم الذى لحقه ، بل كان وعيهما زائفا في حين ان وعي مبارك ربيع هو الوعي الأقرب الى رؤية المثقفين الأكثر شعبيّة ، الذين تؤثر على ثقافتهم المفاهيم الراديكالية . وأما في الفصل الخامس فقد تناولت الوعي الاقصى الذى يتجاوز مرحلة عبد الكريم غلاب ، ومبارك ربيع في (الريح الشتوية) وأحمد زياد ، ووقفت امام الرؤى الانتقادية للكوّن القصصي كما تفصح عنها اعمال عبد الله العروى (غربة ، واليتيم) والحبابي (جيل الظمأ) ومبارك ربيع (الطيبون) وادريس الصغير (الزمن المقيت) و الميلودى شغموم (الابله والمنسية وياسمين) ومحمد عز الدين التازى (رحيل البحر) ، ولاحظت عن طريق التحليل الداخلي لهذه الاعمال تضافرها في تقديم رؤية موحّدة لمرحلة ما بعد الاستقلال . وهي رؤية تقوم على الإدانة ، والتعبير عن الخيبة والمرارة التي سادت وتسود شريحة المثقفين المبدعين من ابناء الطبقة الوسطى التي ناضلت من اجل الاستقلال لتفوز الطبقات الأعلى بكل شيء .

وقد لاحظت أن مثل هذه الافكار التي عبرت عنها الروايات في هذا الفصل ، والفصل الذى سبقه ، جاءت مطابقة تماما لما اسلفت الكلام عليه عند الحديث في السياق السوسيو/تاريخي ، أو السّياق الثقافي ،مما يعزز الرأى الذى نوهنا به في الفصل الاول من حيث أن الرواية بنية ذات وظيفة ، فهي تسهم في تشكيل البنية الذهنية الكبرى للمجتمع الذى يحتضن هذه الاعمال ، وينمّيها ، في منعطف تاريخي متميّز .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما الفصل السادس - والاخير - فقد ركزت فيه الحديث على الروايات الستى تحتل فيها ذات الكاتب مركزا اكبر ، اى انها تحاول أن تجعل من وعى الذات بيتا للقصيد . وهذا ينسحب على رواية عبد المجيد بن جلون (فى الطفولة) ، وروايـة محمد شكرى (الخبز الحافى) ، ورواية (الغد والغضب) لخناثة بنونة ، وروايات محمد زفزاف ، وهى عديدة . ومن خلال هذا الفصل يتّضح للقارئ والباحث على السواء كيف ان رؤية القاص للعالم تتحدد بعوامل غير ذاتية ، فعبدا المجيد بن جلون ، رغم انكفائة على النفس ، الا أن روايته تأبى الا أن تكون مقارنة بين بيئتين هما : المغرب ، والغرب المتحضر ، ممثلا بانجلترا . ورغم أن محمد شكرى معنيٌّ اولا بكتابة سيرته الذاتية الا انه كتب فى الوقت ذاته سير الناس الاخرين ، وسيرة مرحلة اجتماعية كان أبطالها : الجوع ، والجهل ، والمستعمر ، وان رواية خناثة بنّونة (الغد والغضب) رغم تناولها لمشاكل البطلة الذاتية (الملل والشعور بالغربة) الا انها تطمح لتغيير العالم وتتخذ من الاستاذة مثلها الاعلى لانها استطاعت ان تحدث التغيير الايجابى فى فصلها المدرسى عن طريق التجربة ، واشراك التلاميذ فى البحث ، والقاء الدروس ، وتربيتهم تربية ديمقراطية حقيقية ، وعلى الرغم من ان روايات محمد زفزاف تبدو محمومة بالشبق ، واللهاث وراء الجنس الشاذ، المنحرف الا انها تصوغ ذلك من منطلق نقدي قائم على وعى بفساد الواقع ، وتسلط البورجوازيين والمنحلّين على مقدرات الدولة واجهزة السلطة ، واطلاق يد الشرطة في كل مكان لمعاقبة المسيّسين ، وترك المدمنين على المخدرات وانواع الكحول والمحظورات الاخرى . والعلاقة مع الغرب - فى روايات زفزاف - تذكرنا ايضا برواية (بن جلون) و (عبد الله العروى) .

وعقّبت على هذه الفصول الستة بخاتمة مختصرة اختصارا كبيرا اكدت فيهـا على أهمّية الرؤية الشمولية للأعمال الابداعية ، واستخدام هذه الاعمال فى استخراج رؤية موحدة للكتّاب حول العالم .

وخصصت ما بقى من صفحات البحث لقائمة المراجع العربية والاجنبية التى رتبتها وفق أحرف المعجم .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي الختام أرجو لهذا البحث أن يكون حلقة جديدة في سلسلة الدراسات التي تتناول الرواية العربية وأن اكون قد مت فيه ما يكون عونا للباحثين والدارسين الادبيين .

عمان / الجامعة الاردنية
كلية الاداب

ابراهيم خليل

٣٣١٠٦٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يمكن القول بأن الدراسات الادبية التي روجت لتأثير الوسط الاجتماعي في الابداعات الفنية قديمة ، بدأت مع مدام ستايل (Stael) (١٧٦٦-١٨١٧) (١) والوضعية ، وتلاحقت الي الوجودية في القرن العشرين . الا أن الفيلسوف الالماني فيورباخ في كتابه " محاكاة نيورباخ " (Memésis d'verbach) ، كان اول من دعا الي دراسة الادب في ضوء عصر الكاتب ، والاحالة بشكل أوسع على السياق الاجتماعي الثقافي ،مع تسليط الاضواء على الطريقة التي يمسك بها الواقع ، والمنظور الذى يدرجه فيه ، وكذلك الاسلوب . كما أدرك ان النتاج الادبي بناء مطابق لتشكّل البناء الاجتماعي ، وما يطرأ عليه من تطور : "ان التناول الدقيق للواقع المعاصر ، وصعود فئات بشرية واسعة وضيقة اجتماعيا الى وضع أعلى بتمثيل نيابي مرتب أو رفيع ، وتكتل الافراد ، والاحداث الاجتماعية الاكثر اشتراكا في المجرى العام للتاريخ ، وعدم استقرار الخلفية التاريخية من جهة أخرى ، تلك هي أسس الواقعية في اعتقادنا ، ومن الطبيعي أن يكون شكل الرواية النثري،المرن ، الرّحب ، هو الشكل المؤهل لاستيعاب هذه العناصر في وقت واحد (٢) . . . ".

من لوكاش الي غولدمان :

وتظل مساهمة فيورباخ - على هذا الصعيد - مساهمة وجيزة (٣) . في حين أن غولدمان (١٩١٣- ١٩٧٠) هو الذى يتكامل لديه منهج سوسيولوجي لدراسة الادب تتصدّره مقولات كبرى مثل:الكلّية ، والبنية الدالة ، وكلاهما مأخوذتان من استاطيقا هيجل وجورج لوكاش . (G.Luchaes) (٤) وقد استطاع بما أفادهُ من تجارب سابقيه أن يحيل النقد السوسيولوجي الى عملية اجرائية ترمي لفهم العلاقة بين العالم ، والابداع الادبي . (٥) .

---

(١) روبير اسكاربيت: سوسيولوجيا الادب، ت امال عرموني ، دارعويدات ، بيروت ١٩٨٣ ، ص٢٨

(٢) انظر: جاك دوبوا ، نحو نقد ادبي سوسيولوجي ، ترجمة قمرى البشر (مقال) في افاق (مغربية) ع ١٠ تموز (يوليوز) ١٩٨٢ ، ص ٣٨ .

(٣) نفسه ص ٣٩

(٤) جاك دوبوا : المرجع نفسه ص ٣٩ ، ٤٠

(٥) المرجع نفسه ص ٤١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويعترف غولدمان في غير موضع بفضل استاذه لوكاش وتأثره بآرائه ، ولا سيما تلك التي تتعلق بالتحليل الاجتماعي للادب ، وكان لوكاش اول من حاول أن يضع تعريفا سوسيولجيا للرواية . وذلك في كتابه الذى وسمه بعنوان " نظرية الرواية " الذى صدر عام " ١٩٢٠ " . ويتلخص تعريفه لها بالكلمات التالية "عمل نثرى ، يصور اقدارا بشرية ، ومحيطا اجتماعيا وطبيعيا في شكل كالملحمة في تصوُّره الكلّي للحياة ، ولكن الملحمة تقوم على فكرة الوفاق بين البطل والمجتمع ، في حين أن الرواية تقوم على مبدأ الصّدام بين البطل والواقع . ولهذا يبدو البطل إشكاليًا او كثير الجنون . وهذا قد يفسر شيوع السخرية في كثير من الروايات ، وكشفها لتعدُّدية الكون . (١) "

فالرواية في رأى لوكاش جنس ادبي جدلي ، تتحقق فيه جدلية " نعم " و " لا " . وقد التقط رونية جيرار الفرنسي هذه الفكرة وطورها في كتابه " الزيف الرومانسي والحقيقة الروائية " الذى يؤكد فيه أن الحقيقة التي تتكشف عنها كل رواية هي وجود رغبتين احداهما هي الاصل ، والثانية الفرع . وتكون الثانية وسيطا للاولى من اجل تحقيق المرغوب فيه . " فدون كيخوته " له رغبة ، و" أماديس " وسيلة لتحقيق هذه الرغبة ، وهي المغامرة . وقد وسع جيرار هذا المفهوم وأوضحه في كتابه " مسار الرواية التاريخي " الذى أفاد منه لوسيان غولدمان .

فقد ألف غولدمان عددا من الكتب تطرق فيها الى هذا الموضوع . منها كتاب " نحو سوسيولوجية للرواية " . وكتاب " سوسيولوجية الادب " وفي كليهما يؤكد ان الرواية قصة بحث عن قيم اصيلة في صيغة متدهورة . . . وفي مجتمع متدهور . . ويتجلى هذا التدهور في اتخاذ الوسيط ، واختزال القيم الى المستوى الضمني ، واندثار الحقائق الاكيدة ، وهذا البناء يماثل تماما الحياة اليومية في المجتمع البورجوازى (٢) .

---

(١) جانفيف موبو = تعريف سوسيولوجي بالرواية ، ت رشيد بن حدّو ، آفاق ، ع ١٠ ، تموز ١٩٨٢ ، ص ٥٥ ، وانظر ايضا = سيد ياسين = التحليل الاجتماعي للادب ، دار التنوير ، بيروت ، ١٩٨٣ ، ص ص ٢٩-٣١

(٢) موبو = المرجع نفسه ص ص ٥٦-٥٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تطابق البنيـــة الروائيـــة والاجتماعيـــة :

وقد توصل غولدمان الي أن ثمـة تطابقا بين بنية الرواية والظاهر الجوهرية للبنية الاجتماعية الاقتصادية من حيث التطور الاجتماعي ، فالرواية ذات البنـــاء (البيوغرافي) تتطابق مع فترة الرأسمالية الليبرالية ، التي كانت تشهد تميزا فـــي الفرد ، واتساعا شاملا رغم الحـدود التي تفرضها الاعراف .

وهذا النمط ساد الرواية في القرن التاسع عشر بما عرفت به من استقلاليـــة البطل . وفي الوقت الذى تطوّرت فيه الرأسماليّة نحو شكلها الاحتكاري (الامبريالي) وأخذت اهميـة الفرد بالتناقص ، نجد البطل ينتقل الى المرتبة الهامشية . وفـــي بداية القرن العشرين عرفت الرواية أكبر أزماتها بانتهاء الطابع البيوغرافي لها . ويميّز غولدمان بين طورين في المرحلة الاخيرة . الطور الاول : ويتمثل في محاولة الروائـيين اعادة التماسك لدى الفرد يربطه بوحدة مشتركة تتجاوزه : (اسرة ، او جماعة ،أو ثورة ،) ، وتتطابق هذه المرحلة مع ازمة الرأسمالية الشاملة ،وأثر الايديولوجيـــات الاشتراكية على المجتمعات الغربية . كما هو الحال في الرواية الامريكية في الثلاثينـات والفرنسية (اندرية مالرو) ، أما الطور الثاني فقد تميز بالاندثار التدريجي للبطـــل والشخصية الروائية التي فقدت فيه هويتها ، ووحدتها ، ويتمثل هذا الطور بأعمـــال جويس ، وكافكا ، وموجة الرواية الجديدة ، واستخلص من ذلك نتيجة ، وهي : أن ثمة صلة بين تطور الشكل الروائي الادبي ونموّ البورجوازية (١)

مؤشـــرات بنيويـــــة :

يتميز غولدمان عن سابقيه بأنه ـ على الرغم من خضوعه لسحر الهيجليـــــة ، الجديدة في " نظرية الرواية " ـ فقد تأثر في الوقت نفسه بالبنيوية (. (Structuralism

(١) مويمو ، المرجع نفسه ، ص ٦٠ـ ٦١ وانظر ايضا : مواقف ع ٣٢ ص ص ٧٩ـ ٩١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واجتمع هذان المؤثران ليقوداه نحو عناية أكبر بالنص الروائي . وهذا ما يتجلى في كتبه ، وأهمها : كتاب الاله الخفي (The Hidden God) (١٩٧٠) ، الذى كشف من خلاله عن التناظر والتطابق بين ابنية الاعمال الادبية لدى راسين وباسكال مع البنية الذهنية لدى فئة نبلاء الرداء (Noblesse de Robe) في فرنسة في القرن السابع عشر (١) .

وسار غولدمان على خطى لوكاش في ادراك المستوى التاريخي الذى يتكشّف عنه النص الروائي ، ووقف عند مصطلح البطل الإشكالي . (Problematic Hero) الذى يفهم منه انه بطل يبحث عن القيم الليبرالية في عالم يعمل بقسوة من اجل خنقها (٢) . كما تحدّث عن اختفاء هذا البطل التدريجي من الروايات في اثناء الفترة من (١٨٨٠ - ١٩١٤) (٣) .

المنهج البنيوى التكويني :

لقد عُرف منهج غولدمان في دراسة الادب بالمنهج البنيوى التكويني ، وحقيقة هذا الاسم انه يعبّر عن الطابع المختلط لافكاره . فهو يجمع بين تكوينية جان بياجيه وجدلية لوكاش القائمة على مراعاة المستوى التاريخي ، وما اكتسبه من تأثير بنيوى .

والسؤال الذى يطرح نفسه الان هو ما هي البنيوية التكوينية ؟ وما هي مرتكزاتها البارزة ؟ وما علاقتها بتحليلنا الاجتماعي للرواية بخاصة والادب على وجه العموم ؟ وفي أثناء الاجابة على هذه الاسئلة لا ينبغي أن ننسى حقيقة غولدمان وهي أنه مجرّد عالم اجتماع . يقول في مقدمة كتابه : "الانسان والمجتمع" الصادر عام ١٩٦٦ ، : "أنا أقل من أوصف بالفيلسوف أو المفكر ، وما أنا الا عالم

(1) John Hall, the sociology of Literature, London-1977-p.6
(2)Ibid, p.6
(3) Ibid, p. 7

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اجتماع فحسب ، ورجل علم أراد أن يقدّم أبحاثاً تجريبية ذات مغزى ، وأن يفـــرز منهجا ايجابيا لدراسة الانسان وحقائق المجتمع (١) . وعلى هذا فقد كان هاجســه الاولى أن يتوصل الى نظرية تلقي الاضواء على الابداع الثقافي لدى الجماعـــات والافراد ، ودراسة الظواهر الانسانية دراسة علمية جديدة ، مستخدما ما توصـــل اليه علم الاجتماع من مصطلحات مولّدة . يقول في هذا الصدد : "نحن دائما نحدد ظاهرة العلوم الإنسانيّة تحديدا يفوق في دقته الماركسية عندما نستخدم مصطلحـات اكثر مطابقة نستمدها من أعمال جان بياجيه . (٢) "وقد تساءل غولدمان أول الامـر حول الادب ، وهل تقوم اجتماعيا تعلى واحد من الأمرين التاليين : الادب وعلاقتـه بالمجتمع ، أم التاريخ الادبي وعلاقته بالنظريات الجمالية . وأراد أن يكوّن نظريـــة تستطيع ان تجد حلا وسطا بين هذين المستويين المتباعدين دون أن تقع فـــي ميكانيكية التحليل الشكلي او التحليل (الخلقي) واستعان بعلم الجمال الاجتماعـــي لتحقيق أهدافه . كما استعان بعدد من المفاهيم التحليلية التي احتلت مكانـــا بارزا في أفكاره . ومن هذه المفاهيم الشمولية (Totality) و"رؤية العالم" (World View) والشكل (Form) والذات ،والموضوع ، والوعي القائـــم والممكن ، ومفهوم البنية الدالة Significant Structure) وابستمولوجيـــا الذات والموضع ، والتوازن ... وغيرها من مفاهيم استمّد بعضها من لوكـــاش وبعضها من جان بياجيه ، مضيفا عليها من المعطيات التطبيقية ما يجعلها اساسا لمنهج يتعامل بالامثلة والنماذج (٣) . وقد دعا في كتابه "الاله الخفي" - وهو اكثر اعماله أهمية - الي تطوير هذه المفاهيم واستخدامها في دراسة الاعمال الادبيـة والفلسفية ، فهو يقول في هذا الكتاب: "ان الفكرة المحوريـة - هنا - تقوم علـــى اساس أن الحقائق ، ومنها الانسان ، تسعى الى التشكّل من تلقاء ذاتها علـــى الدوام في بنية شاملة . " (٤)

---

(1) Goldmann, Lucian, Method in the Sociology of Literature, Translated from Frinch by William Boelower, Basil Blackwell Oxford, I edition,(1981)p.6
(2) Ibid,p.7
(3)Ibid,p.8
(4) Ibid, p. 9

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهذه البنية ليست امرا اعتباطيا وانما هي بناء ذو دلالة . وهي تكـــون بنية واحدة في المكان والزمان المحدد على المستوى النظرى والتطبيقي والانفعالـــى . والبنى المتعددة لعصور مختلفة ، وأماكن متباعدة يمكن دراستها ايضا بهذا المنهـج ونستطيع فهمها وشرحها متدرجة في سلم القيم السائدة والمقبولة في الاطار الزمـــــنى للبحث . ويعلق الدارسون على هذا الجانب من توضيح جولدمان لمفهوم "البنيـــة الدالة" بقولهم : انه جعل منهجه يقف على أساس صلب تفتقـده جهود اســـتاذه لوكاش . (١)

الاصـــل الثنائـــي للأعمال الابداعيـــة :

وفي كتابة "الإلة الخفي" يوضح ان دراسة الاعمال الادبية من خلال الاشكال أو من خلال البعد الميتافيزيقي ، أو التاريخي ، وحده كما فعل لوكاش - تبقـــى دراسة ناقصة ، وهو يدعو الى دراسة هذه الاعمال بوصفها ظواهر اجتماعية لا تنشـأ في فراغ ، وانما لها جذورها الأساسية في البنية الشمولية التي هي نتيجة نشاط الافراد التلقائي ، وعلى الذى يريد فهم هذه الاعمال ان يتفتح على نشأتها وأصلها الثنائـي (الفردى والجماعى) وتكوّنها التاريخى والدّلالى . (٢)

كتب غولدمان يقول : "من ابرز المهمات التي يتصدى لها الباحث فـــــى الظواهر الانسانية معرفة ما اذا كان الافراد وحدهم هم الذين ينتجون البنـــى الذهنية والفكرية أم أنها نتاج التحولات التي تطرأ على البنى ؟ وتصرّ البنيويـــة التكوينية على أن هذه البنى هـى الجانب الجماعى من فكر الانسان ، واحساساتـــه ، وعاداته الخلقية ، التي لا تمكن دراستها في منأى عن التاريخ . (٣)

---

(1) Ibid, p.9
(2)Ibid,p.10
(3)Ibid,p.10

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهو يرى ان العمل الادبي عمل يجب أن ننظر اليه من حيث هو بنية لها موقعها من السياق التاريخي . وبهذه الطريقة فقط نستطيع ان نمسك بالطابع الاجتماعي التوصيلي للأدب . وهذا الرأى هو الذى يظهر ادراك غولدمان للصلة الخاصة بين الفن والمجتمع ووضعها في المكان الصحيح . والتنكر لمثل هذا الافتراض الذى جاء به يعني التنازل عن الطابع السوسيو استاطيقي للنص الادبي والقبول بالرأى المثالي القائم على أن النصوص الادبية مجرد العاب (١) . وحقيقة الامر ان ما دعا اليه غولدمان يضع النص الادبي في اطار غير عقلي مربك يتطلب سبرا لاغوار العملية الابداعية ، وتشخيصها من المنظورين الانتاجي والتاريخي . واستعان بعدد من المعطيات الانثروبولوجية للتخلص من هذا الوضع المربك . فهو يقول : ثمة ثلاث قواعد أساسيّة تتحكم بسلوك الانسان . هي : (أولا) : رغبته في التكيف مع الوسط الذى هو فيه .وبذلك يمكن تفسير الطابع العقلاني لسلوكه وتصرفاته . (ثانياً) رغبته في أن يكون مشمولا في سلسلة العمليات التي تتم باستمرار وتؤدى الى بنية محددة . (ثالثا) ديناميكية سلوكه والتحولات التي تطرأ على البنية التي هو جزء منها ، بما يتفق ويتناسب مع تطورها الذاتي . . وهذا كلهم يتجلى في القواعد التي تتحكم بعملية الابداع الادبي . (٢)

إعادة النّظر في مفاهيم لوكاش :

وبناء على هذه القاعدة شرع غولدمان في البحث عن استنتاجات ودلالات موضوعيّة تمكّنه من إعادة النظر فى مفاهيم لوكاش ، وتنقيتها من خصائص (المثاليـة) أو الكانطيّة الجديدة ، ولهذا يتميز استخدامه لمصطلحات كالشمولية (Totality) والوعى (Cohsciousness) والذات ، والتوازن ،ورؤية العالم (World View) بطابع خاص نجده واضحا كل الوضوح فى كتابه " من اجل علم اجتماع للرواية " (Towards a Sociology of the Novel)

(1) Ibid, p. 11
(2) Ibid, p. 11

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ففي هذا الكتاب لا يقع المرء على نظرية عَوْيّة مرتجلة وانما نظرية تسلط الاضواء على الاصول التي تتكون منها الاشكال في العمل الادبي . وقد ركب غولدمان من المفاهيم المذكورة آنفا نموذجيه النظري الذي اطلق عليه اسم : "النموذج البنيوي التكويني" كما ذكرنا (Genetic Stracturalist Model) وهو أبرز ماأضافه الى النقد الادبي .

ولعل أول مفهوم طرحه غولدمان هو مفهوم "البنية الدالة" الذي ذكرناه في السابق . ففي نظره أن الكاتب الروائي يقوم بخلق "بنية" وهذه البنية تتيح لنا أن نفهم الظاهرة الاجتماعية التي يعبر عنها الكاتب من حيث هو منخرط في جماعة من الناس . وبالتالي فان المعنى المقصود هو ربط هذه البنية بالوعي الجماعي وهي لا تتجلى في فكر الافراد بل في فكر الجماعة المميزة . والتطابق الذي يتجلى بين رؤية الفرد "والوعي الاقصى" للجماعة هو ما يسمى عبقرية . ولتوضيح ذلك بمثال يورد غولدمان رأيه في خواطر باسكال فيقول : "اذا أردت أن أدرس خاطرة لباسكال وجب الرجوع لجميع خواطره . ولكي نفهم هذه الخواطر يجب الرجوع لحركة (الجانسانية) ولا أستطيع أن افهم الجانسانية الا بالرجوع الى طبقة نبلاء الرداء (١)

ويذهب غولدمان الى التوكيد على حقيقة مهمة وهي ان العلاقة القائمة بين الانتاج الادبي - ولا سيما الروائي - والمجموعة الاجتماعية لا تقل في مستواها عن العلاقة القائمة بين عناصر النتاج الادبي نفسه . وهذه العلاقة تنشأ من أن الكاتب المبدع يمزج البنى الذهنية التي فيها "الوعي الجمعي" لفئة من الناس مع العالم المتخيل الذي يوجده . والتناظر الذي ينشأ بين عالم النص الادبي والبنية الذهنية لفئة اجتماعية ما ليس تناظرا دقيقا في الغالب ، وقد يتجلى هذا التناظر في صورة تدل على وجود علاقة ما بين تلك البنى . وبالطبع فان هذه البنى لا تمثل الوعي وحده وانما قد تكون من النتاج اللاواعي . ولا ينفي غولدمان دور الفرد

---

(١) د . جمال شحيد ، البنوية التركيبية ، دار ابن رشد ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٢ ، ص ٤٥ والجانسيزم حركة تقوم على مبدأ التفسير الجبري لبعض آراء القديس اغسطين ، ومؤسسها هو الراهب البلجيكي جانسيتونس ، وانتشرت في فرنسا بعد عام ١٦٤٠ ، انظر : عالم الفكر ، ع ٤ ، اذار ١٩٨٥ الكويت ، ص ١١٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في صياغة الاثر الادبي ، ولكنه يكتفي بالتوكيد على أن الفرد في مثل هذه الاحوال يتصرف انطلاقا من البنى الذهنية التي تسود مجموعته . وهو لذلك يرفض القول الماركسي بأن مضامين الادب هي "انعكاس" للوعي الجماعي وانما هي - في رأيه - عنصر من العناصر المكونة لهذا الوعي .

ويرفض غولدمان الرأي الذي يقول بأن البنى الشكلية هي موضع البحث فقط لان هذا الاتجاه يؤدي الى القطيعة الكلية مع المضمون ، في حين ان سوسيولوجيا الادب تدعو للغوص في المعنى التاريخي والفردي . ولهذا يوصي النقد الادبي بتبني منظور واسع لا يغفل عن التحليل الداخلي للنتاج واندراجه في البنى التاريخية والاجتماعية ، كما لا يغفل عن دراسة السيرة الذاتية للفنان ونفسيته من حيث هي ادوات مساعدة ، مع ادخال النتاج الادبي في علاقته مع البنى الاساسية للواقع التاريخي والاجتماعي . (١)

ومن هذه الفقرة يمكننا أن نلقي الضوء على جدلية غولدمان . فهو لا يتنكب لما تحدث فيه ماركس من أن التحليل الموضوعي لنشاط الانسان يؤدي الى ادراك بناء ذي مستويين احدهما فوقي والاخر تحتي ، ولكنه يضيف الى ذلك قائلا : ان هذين البنائين يرتبطان بعلاقة جدلية ، والبنية الدالة في أيّ عمل ادبي ، أو عمل فكري تمثل الوعي الجمعي للذات في علاقاتها الحميمة بذينك البنائين . وبكلمة اخرى فان الانسجام والتجانس الذي تتميز به فكرة "البنية الدالة" يأتيان من اعتماده على ادراك العلاقات المتشابكة بين انواع مختلفة من البنى (٢) . والكاتب المبدع ، شأنه في ذلك شأن أي انسان - يتحدد سلوكه الابداعي في ضوء استجابته المستمرة للمشكلات التي تعرض للجماعة التي هو عضو فيها ، ولما يطرأ عليها من تطور . ولهذا فان هذه الاستجابة تصهر المبدع في فئته الاجتماعية ويشير الي ما ذكره جان بياجيه عن النفس الانسانية وما تمتاز به من قدرة على امتصاص الاخرين ، والنزوع الى الالتحام والتماسك معهم في وحدة ما . وفي مقدمة ذلك حرص النفس على استيعاب ما يحيط بها من موضوعات ، والتوغل الى الحد الذي

---

(١) انظر : بون باسكادي : البنيوية التكوينية ، مقالة آفاق ، ع ١٠ ، ١٩٨٢/١ ص ٢٦-٢٩
(2) Ibid, p. 15

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يجعلها تختزن افكارا وموضوعات مشابهة لتلك التي يختزنها الاخرون . وبكلمة موجزة فان غولدمان لا يختلف مع بياجيه في أن خاصية الامتصاص التي تميز النفس هي التي تقود بصفة دائمة الى تكون البنى . وأما نزوعها للالتحام والتماسك مع الاخرين فهو الذي يقود - بصفة حتمية - الى تضاؤل الذات الفردي ، والاعلاء من شأن الذات الجمعي ، وهو الذي يجعل الفرد يحيا في اطار من التوافق التام مع الفئة الاجتماعية ، التي هو واحد منها ، والاستجابة المستمرة لما يطرأ عليها من تغيير . (١)

ويلح غولدمان على العلاقة الجدلية بين بنية العمل الادبي ودلالته فكلاهما يؤدي للاخر .

مفهوم الكلية :

وبجانب مفهوم "البنية الدالة" الذي يُعدّ حجر الزاوية في المنهج البنيوي التكويني هناك مفهوم الكلية (Totality) أو الشمولية فهو يرى في كل ظاهرة انسانية ظاهرة ذات وجهين : احدهما بنيوي والاخر تكويني ، ولكن ندرس هذه الظاهرة ، لا بد من دمجها في اطار من الظواهر لا تستهل دراستها من الخارج ، بل ينبغي الغوص فيها وادراك وعيها الذاتي (٢) .

ويرجع استخدام غولدمان لهذا المصطلح الى عام ١٩٤٥ في بحث أعدّه حول كانط (Kant) . يقول في هذا البحث : ان من يتأمل معنى هذا الكتاب سيصل - دون شك - الى قناعة بأن فكرة الشمولية " في نظري تقوم على مبدأين هما : التعميم (Universe) ثم التجمع الانساني المنظم ، وهي - بهذا المفهوم - تعد من ابرز المقولات الفلسفية على المستوى الابستمولوجي ، والجمالي والاخلاقي .. (٣) ومفهوم الشمولية هو الذي يلقى على نظرية غولدمان طابعها التحليلي

---

(1) Ibid, pp - 14-16.

(٢) عبد الحق منصف: الاسس العامة للبنوية التكوينية ، اقلام (مغربية) ع٥٦ ، ابريل (نيسان) ١٩٨٢ ، ص ٥٤

(3) Ibid, p. 21

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فمن خلال هذا المفهوم استطاع أن يلقي الاضواء على التشكل الذاتي للطبقات والفئات الاجتماعية عبر فترة محددة من التاريخ . وهو يختلف عن مفهوم "الروح المطلق" (Absolute Spirit) لدى هيجل الذى جعل مفهومه هذا خارج الكون في حين أن غولدمان ظل ينظر الى الامر وكأنه داخل العالم. فهو يقول : "انه لا يمكن حل المشكلات المتعلقة بالتاريخ الا من خلال البنيوية التكوينية مرورا بفكرة الشمولية التى يتجلى من خلالها التاريخ في غاية الوضوح والتحديد من حيث هو سلسلة من النشاط السوسيولوجي (١) . والشمولية ايضا تنعكس في رصدنا لتكون الطبقات الاجتماعية ، وهى ما يمكن ان نستخلصه بتأمل الاعمال الادبية فى وحدتها الجدلية وتماسكها الكلى . وهى اولا وأخيرا ترتبط بمفهوم "رؤية العالم" (World View) الذى هو الغاية المرجوة لكل عمل أدبى وفنى ، أو لكل نص فلسفى أو عقلانى آخر . ويبدو أن غولدمان كان يواجه الاعتراض على الشمولية من حيث هى نفي لاهمية الذات الفردية للكاتب او الفنان ، ويرد على ذلك بالقول : ان ادراج الكاتب المبدع في كلية سوسيولوجية لا تنطوى على تذويب لهذا الانسان ، وانما هى عملية الهدف منها ان نجد له موقعا فعلى قلب المجتمع لا على الهامش . فدراسة الاديب في الاطار الكلي الشمولي تأكيد لذاته الفردى وليس الغاءا له كما يُظن (٢). وهو يجد في الحديث عن مصطلح "رؤية العالم" ما يقدم الحل لهذه المشكلة . يقول جان ديفينو (Jean Duvignaud) ان مصطلح "رؤية العالم" هو أعظم ما أضافه غولدمان ، فهو يفسر الجانب الوثائقي من العمل الادبي ، ويبرز القيم الجمالية للنص عن طريق الاستنطاق السوسيولوجي ، واظهار الطابع غير الفردي له ؛ ويلقي الضوء على الوحدة الكبرى التي تنتظم مجموعة من الاعمال الادبية في سياق عضوى (٣) .

ويوضح غرامشي (Gramscia) أن "رؤية العالم" ، كما اراد لها غولدمان ، ليست مظهرا لاى بعدٍ بنيوى ، وهي ليست مجرد انعكاس لتلك البنى

---

(1) Ibid, p.21
(2) Ibid, p.23
(3) Ibid, p. 23

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في النص الادبي ، وانما لها جانبها الدلالي العملي، وهذا الجانب يتمثل في قدرتها على احتواء الوعي الطبقي في مستوياته العقلي ، والنقدي ، والسياقي ، والتكاملي (١).

وقد اسهب غولدمان في تبسيط هذه المقولة اسهابا كبيرا ، فالكاتب - في نظره - يحاول أن يستجمع افكار الجماعة ومشاعرها ، واحساساتها وعاداتها وقيمها ، لينظمها بشكل يتفق مع البنية الشاملة التي تنطوي على مزيج من علاقات الانسان بالطبيعة ، والانسان بالانسان . والصفة الانتقائية للعمل الادبي تتمثل في قدرة المؤلف على صياغة هذا العمل في ضوء مواهبه الابداعية ، وحدسه الفني الخاص ، وعلاقته الجذرية ، من حيث هو عضو نشيط وفعّال ، في المجتمع، كما تتجلى مهارة الكاتب في قدرته على الجمع بين الحاجة الى اعادة تشكيل الاشياء وتنظيمها وفقا لحدسه الفني الخاص ، والسياق الثقافي الذي يستمد منه لغته (٢).

وحتى لا نقع في سوء الفهم فنظن غولدمان يتحدث عن محتوى الاعمال الادبيّة فقط ، فانه يؤكد في مقالتيه "البلاغ السّوسيو/ثقافي" و" البنيويّة التكوينية في التحليل الاسلوبي "على أن بنية النص الادبي تفصح عن توافق تام مع بنية المعاني المستخدمة في النص ، تلك المعاني التي تندرج تحت ما يسمى "رؤية العالم" (٣) وهذا الرأي يؤكد عمق الصلة بين وحدة النص ، وما فيه من تعدّد وغنى . وهو يؤكد ايضا اثر الدلالة في الدال ، وأثر الدلالة الشاملة للنص على الدلالات الجزئية المتناثرة في البنى . وهذا الذي وكد عليه غولدمان وضع اللغويين البنيويين والاسلوبيين المعاصرين امثال لوتمان (Lotman) وأوزبنسكي (Uspenski) في وضع محرج للغاية . فهو يقول : لقد اردت ان اوضح لكل هؤلاء ان بالامكان استيعاب معطيات علم اللغة الخالص ، والشكلية الاسلوبية ، فيما اخترت ان اسميه "شكل المحتوى" (٤) : " The Form of Content "

---

(1) Goldmann, Ibid, p. 23
(2) Ibid, p. 24
(3) Ibid, p. 24
(4) Ibid, pp 24-25

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الذات غير الفـــــــردى :

وحديث غولدمان حـول "رؤية العالم" و "البنية الدالة" قاده الى الحديث حول ما أسماه بالذات غير الفردي (Transindividual Subject وشـــــرح هذا المفهوم باسهاب في مقالته : "الذات والابداع الثقافي .. " التي درس فيهـا بامعان الطابع السّوسيولوجي للبنى (١) .

وهو يرى أننا نستطيع ان نفهم بنية الذات الفردية بالرجوع الى الظـــروف الاجتماعية المحيطة بالمبدع ، والى المقولات الفكرية المؤثـرة في تكوينه الشخصـــي . وهذا ماأسماه بالعناصر الشمولية التي تسهم في تكوين الذات الفردي . وهـــي عناصرُ مساهمةِ التاريخ في تكوين هذا الذات. وحقيقة الامر ان التاريخ لا يتجلـــى الا من خلال الذات "الجَمْعي" ومن أجل ذلك تنبغي ملاحظة التحوّلات المحتملـــة التي تقود الى شـكل من اشكال التفاعل والتلاحم بين مفاهيم الفرد والفكر اره ، وبنيته العقلية ، وعمليات التبنين الثقافي . فعملية الإبداع التي يقوم بها الفرد هي حلقـة في سلسلة من العمليات الاجتماعية يتجاوز بها الفرد ذاته ملتحِما بذوات الاخريـــن التي تكون الذات الجمعـــي (٢) .

وبهذا التوضيح يضفي غولدمان على فكرة "الشمولية" و "رؤية العالم" مـــا يربطهما بالبعد التاريخي . ويرفض ، في الوقت ذاته ، باصرار ، الفكرة التي تقـول بأن الموضوع الثقافي ، أو الابداع الادبي ، هو نشاط فرديّ محض . يقول : "انـــني لا أنكر على الفنان قدراته على الخلق ، ولكني أقول ببساطةٍ : ان الفنان ، يخـترع عمله من خلال المعطيات الفنية التي يشارك في صياغتها الاخرون ... (٣) .

---

(1) Ibid, p. 19.
(2) Ibid, p. 19
(3) Ibid, p. 20

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي كتابه "ابحاث جدلية" يدافع عن رأيه هذا مبرزا مفهومه الخاص للأصالة . فهي في نظره أمر ضروري ، ودونها لا نستطيع تحليل النص ، ويضيف مؤكدا ان العمل الادبي تعبير عن مفكر ، أو عن عبقرية كاتب ، وبالامكان ان نفهمه دون الرجوع الى سياقه التاريخي ، أو الى ترجمة الكاتب ، واخباره ، ولكن تبقى العناصر الاكثر تحديداً لشخصيته هي تلك التي يمكن ان نعثر عليها في بحثنا للنشاط الروحي الذى يتجلى - على سبيل المثال - في الوعي الجماعي القوى ، ونشاطه الخلاق ، في مجالات الابداع . وبهذا تتضح فكرته القائمة على أن العمل الادبي هو التحام الذات بالنحن "Je" and the "Nous" (١) .

الوعي القائم والوعي الممكن :

وثمة شيء اخر تكلم عليه غولدمان ، وهو الوعي القائم ، والوعي الممكن . وكلاهما يسهم في تكوين الاثر الادبي . فالجماعات البشرية منذ بدأ بعضها يعتمد على بعض في تسيير شؤون حياتها اليومية ، ومنذ بدأت هذه العلاقة بالرسوخ والتطور مع الزمن ، نشأ سياق من المفاهيم يمكّن كل جماعة من فهم ذاتها في الاطار الشامل للمجتمع . وهذا غيرُ بعيد عمّا ذهب اليه لوكاش في "التاريخ والوعي الطبقي" ولا سيما في تأكيده على أن المقولات التي تؤمن بها الجماعة هي حصّلة التّطور السوسيو تاريخي . (٢)

ويرى غولدمان ان هذا الوعي هو الوعي الحقيقي . وهو الذى يطبع علاقات الافراد بعضهم ببعض بطابع خاص . وكل فرد يحاول أن ينظّم علاقته بطبقته بحيث لا يشذ عن تلك المفاهيم ، ولا يخرج عن طريقتها في "رؤيته للعالم" (٣) ويعدّ الادباء والفنانون في طليعة الافراد الذين يحاولون تجاوز ذواتهم مستوعبين الوعي الحقيقي للافراد ، ويحاولون تحويل كل هذه العناصر الى وعي يرتقي بالقيم الاجتماعية

(1) Ibid, pp.20-21
(2) Ibid, p. 25
(3) Ibid, p. 26

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الى مرتبة أعلى يمكن أن نطلق عليها "الوعي الممكن" أو "الوعي الاقصى". وهو - بهذا المعنى - يعيد خلق هذه الاشياء بلغة الاستعارة، أو طبقا لقواعد السرد. مستفيداً مما تسعفه به قدراته المبدعة في التخيّل، ومما يمده به التاريخ، وهذا الوعي الشمولي هو الذي يتيح للكاتب ان يقدم رؤيته الانتقادية للكون دون أن يكون منفصلا عن الاخرين، أو شاذا عن العصر الذي هو فيه، والطبيعة الانتقادية التي تتميز بها رؤية الفنان تأتي من كونه يتوخى أن يقدم بناءً ينسجم مع المعطيات الثقافية التي يندرج فيها الجميع. والعناصر التي يصوغ منها عمله الفني هي اصلا متأصّلة في الوعي القائم لدى النّاس، يضاف الى ذلك حرصه على تجاوز هذا الوعي، واستحضار النوازع الشموليّة، والبنيوية، التي تميّز الوعي لدى طبقة من طبقات المجتمع (١).

وهذه هي "الجماليّة" في نظر غولدمان: القدرة على تحويل الافكار والمشاعر التي يملكها الافراد، في ظروفهم الخاصة، الى عناصر متشابكة في بنية اجتماعية شاملة (٢). ومثال ذلك ان الكاتب الدرامي، في أثناء مزاولته خلق الاشخاص، ينظر بعين الاهتمام الى وضعهم الطبقي، من أجل أن تبدو أفعالهم وأقوالهم مطابقة لاولئك الافراد الذين تتكون منهم تلك الطبقة. ومن خلال رؤية تلك الطبقة للعالم يستطيع هذا الكاتب ان يصوغ لهم ما يفكرون به، وما لا يخضعونه للتأمل والتفكير، بحيث يبرز التواؤم بين ذواتهم الفردية، ووعيهم من حيث هم أفراد، ومستوى الوعي الذي تمتاز به هذه الطبقة من المجتمع (٣).

وفي مقالته "الابداع الثقافي في المجتمع المعاصر" يذهب في توضيح هذه المسألة مذهبا يقول فيه: ليست المشكلة في أن نعرف ما الذي تفكر به الجماعة، ولكن المشكلة هي أن نعرف كيف يتأتّى لوعي هذه الجماعة ان يتغير من حال الى حال، دون أن يطرأ تغيير جوهري في طبيعة هذه الجماعة (٤). ومثل هذا

---

(1) Ibid pp. 26-28
(2) Ibid, p. 27
(3) Ibid, pp 27-28
(4) Ibid, p. 28

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لا يتأتّى للدارس الادبي الا باستيعاب الطابع التكاملي لعلاقة الافراد بعضهم ببعض داخل الجماعة ، فهو - عندئذ - سيقف على الخطوط البارزة التي تتحكم في سعي هذه الجماعة لخلق البنى ، ولا يمكن أن يتأتّى ذلك عن طريق الدارسة التاريخية الخالصة للادب ، وعلى الدارس ان ينكبّ على تفحص البنى الادبية مباشرة وادارك ما تفصح عنه من تحولات تطرأ على البنيات الاجتماعية ، وهذا لا يعني اغفال التاريخ الادبي ، بل يمكن القول : ان تاريخ الادب هو أبسط الطرق التي نخوّل عليها في معرفة الحقائق الكامنه وراء ظهور تلك الاعمال ، ولا بد من الجمع بين هذين السياقين : التاريخي ، ثم التحليل الداخلي للنصوص . وسنجد هذين السياقين يفضيان الى نتائج دقيقة واصيلة تؤكد الطابع الثنائي للادب: أي الفردي والجماعي ، الوعي القائم والوعي الممكن (١)

خلاصة منهجية :

وتحدث غولدمان في موضوعات أخرى ، ومفاهيم إضافة على ما ذكرنا . مثل " التشكّل " "والتشيوء" أو " التناظر " ، والتوازن ، وخلاصة التأمل فيما مضى يمكن حصرها في النقاط التالية التي تمثل الركائز الاساسية لعلم اجتماع الادب:

١ . عدم تحليل البنى الادبية والفنية من حيث هي بنى جامدة ومعزولة ، وانما من خلال تطورها ووظيفتها الجدلية .

٢ . كل عمل أدبي أو فني هو في الاصل محصلة لسلوك المبدع الذي يسهم مع سلوك الاخرين في خلق التوازن مع الوضع الذي هم فيه .

٣ . العلاقة القائمة بين مجموعة الاعمال الادبية والفئة الاجتماعية التي ينحدر منها الكتاب لا تقل من حيث مستواها عن العلاقة القائمة بين اجزاء العمل الادبي نفسه .

٤ . للفرد دور كبير في صياغة العمل الفني الا أنه ينطلق في صياغته هذه من البنى الذهنية التي تسود مجموعته .

(1) Goldmann, Ibid. pp. 27-28.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٥. للنقد الادبي أن يدرس سيرة الكاتب ، ونفسية الفنان ، من حيث هي ادوات مساعدة لكن عمله الاساسي هو : التحليل الداخلي للاعمال الادبية وادراجها في كلية اجتماعية - تاريخية .

٦. العمل الادبي تعبير عن "رؤية" الكاتب للعالم . ومهمة علم الاجتماع الادبي هي استخراج هذه الرؤية ، وتقديم التأويل الموضوعي لها ، ولما فيها من تناسق يمكن ترجمته بالعبارة التالية المأثورة عن علم الجمال الالماني التقليدي : "الثراء الحسّي ، مع الوحدة ، التي تنظم هذا التعدد في تناسق معيّن" (١) .

---

(١) بون باسكادى ، البنيوية التكونية ، ترجمة محمد سبيلا (مقالة) آفاق (مغربية) ع ١٠ ، تموز ١٩٨٢ ص ص ١٩ - ٢٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يمكن القول : ان تاريخ المغرب المعاصر يرتد الى الوراء بضعة قرون ، مبتدئا من نشأة الدّولة العلوية ، القائمة الى الان ، والتي يرجع تأسيسها لاحد الاشراف ، واسمه محمد بن الشريف ، الذى كان ظهوره سنة ١٦٥٩م. ثم نهض بتأسيس الدولة ولده الملقب بالمولى رشيد (١٦٦٥ - ١٦٧٢) . ويُعَدُّ المولى اسماعيل (١٦٧٢ - ١٦٢٧) المؤسس الحقيقي والاكبر لهذه الدولة التي شهدت بعد وفاته فترة من الفوضى استمرت نحو ثلاثين سنة ظهر بعدها السلطان القوى محمد بن عبد الله (١٧٥٧ - ١٧٩٠) الذى عرف ببعض الاصلاحات العسكرية والمدنية (١) . وتلاه اثنان من اولاده وهما اليزيد محمد، وسليمان بن محمد ، حكم الاول مدة سنتين فقط ، من ١٧٩٠ - ١٧٩٢ ، والثاني نحوا من عشرين سنة ، وجاء بعدهما المولى عبد الرحمن بن هشام : (١٨٢٢ - ١٨٥٩) ، وفي عهده بدأت الاحداث تتجه بالمغرب وِجْهةً جديدة . ويرجع اليه الفضل في القيام بعدد من الاصلاحات (٢) كان الهدف منها انشاء الروابط بين الدولة والمجتمع الاّ ان احتلال فرنسا للجزائر سنة ١٨٣٠ عجل في صرف المغرب عن الاصلاحات الي مشكلات جانبية خلقها الوضع الجديد .

وفي سنة ١٨٣٢ أكد السلطان المغربي للموفد الفرنسي انه لن يتدخل في شؤون الجزائر (٣) ، الا أنه اضطر لمساندة الامير عبد القادر الجزائري مما عجل في اضرام نار العداء بين الدولتين ، وكان المغرب يعوّل في مواجهته لفرنسا على الاتفاق المبرم مع انجلترة بيد أن معركة إيسلي (٤ آب /اغسطس ١٨٤٤) التي انتهت بهزيمة المغرب ، واستيلاء فرنسا على أجزاء من القسم الشرقي ، وهددت بمدافعها طنجة ، والصويرة (٤) أيقظت المغرب على صدمة الواقع الجديد . فأرتفعت اصوات تنادى بضرورة الاصلاح والمجابهة العنيدة للغرب الاستعماري .

---

(١) انظر: عزيز سلام ، ثلاثة قرون من تاريخ الدولة العلوية ، وزارة الانباء ، الرباط طبعة فضاله ، دون تاريخ ص١ وما بعدها .

(٢) نفسه ،ص ص ٨١ - ٨٢

(٣) عبد الله العروى ، تاريخ المغرب، ت ذوقان قرقوط ، المؤسسه العربية للدراسات والنشر بيروت ط ١ ١٩٧٧ ص ص ٣١٥ - ٣١٦

(٤) علال الفاسي الحركات الاستقلالية في المغرب ، طنجه ، د ت ص ٨٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مما جعل السلاطين كمحمد الرابع (١٨٥٩- ١٨٧٣) ، الذى بدأت فى عهـــده الحركة العلمية ؛ من تأليف الكتب وطبعها وترجمتها مع ادخال أول مطبعـــــة (١٨٦٥) (١) ... والحسن الاول (١٨٩٤) ، ينشطان فى ميادينـــــن الاصلاح الادارى والعسكرى والفلاحي (٢) .

وتزايد احتكاك المغرب بالدول الاوروبية بعد هذا التاريخ . ففي سنـــة (١٨٥٩) يتجلى الصراع على المغرب بين الدول الاستعمارية . ففرنسا تحاول اقتحام الحدود الشّرقية وتستولي على اسناسين (Isnasin) وفيكيك (Figuig) وأما اسبانيا فتجهز حملتها التي انتهت باحتلال تطوان عام (١٨٦٠) وكانـــت هذه الحروب المتقطّعة اختبارا عسيرا للجهاز السلطاني المتخلف ، وأدت فى الوقـت ذاته الى اضعاف المغرب من الناحية الاقتصادية .

ولهذا يتم في سنة ١٨٦٣ توقيع اتفاق فرنسي - مغربي يمنح فيه القناصـــل الاجانب امتيازات كبيرة . كما تسمح هذه الاتفاقية لاولئك القناصل بالتدخل في شؤون المغرب المختلفة كالتملك ، والتّجارة ، وحرية الافراد . وكان يهدف هذا الاتفـاق الى نخر الدولة ، ووضع المغرب في الاطار الشامل لمطامع النظام الاستعمارى القادم من خارج البلاد (٣) . وعلى أثر هذه الاتفاقية دبّ الوهن فى الاقتصاد المغربـــى فقد منح الاجانب حق التدخل فى الاقتصاد والتجارة ، وكف يد المغرب عن القرصنـة فى الشواطئ ، وضعفت الموارد ، فلجأ السلاطين الي فرض الضرائب التي تزايـــدت بسببها شكوى السكان ، ولا سيما الفلاحون الذين عبروا عن هذه الشكاة بثـــورة " الرحامنة " في مراكش (٤) ، بينما طغت على الاصلاحات الصبغة العسكريـــــة ، أما موقف النخبة التجارية في المدن فقد اتسم بالتردد ، والتخفيف من مسانـــــدة ثوار البوادى أو دعـم الاهالي بتطوان (٥) .

---

(١) عزيز سلام ، المرجع نفسه ، ص ٩٧
(٢) علال الفاسي ، الحركات ... ص ٨٦
(٣) انظر : العروى ، تاريخ المغرب ص ٣١٩ ، وانظر ايضا محمد داود : تاريخ تطوان ، ط المهدية ، تطوان ، د . ت ، ٤/٢٠٦
(٤) العروى ، تاريخ ... ص ٣٢٣
(٥) نفسه ص ٣٢٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وخلال الفترة التي اعقبت وفاة الحسن الاول (١٨٩٤م) حكمت سلسلة من السلاطين الضّعاف اغرقت المغرب بالديون وكانت الديون تتزايد بتزايد الاطماع والتدخلات الاجنبية في شؤون المغرب . والحقيقة هي أن فرنسا واسبانيا كانتا تعبّران دوما عن اطماعها الحيوية في هذا الجزء من شمال افريقيا . يقول اوجين أُومِنْ "أحد القادة الاستعماريين في الجزائر" ان لفرنسا حقوقا في المغرب تفوق حقوقها في الجزائر ، والجزائر قادتنا الى تونس وهي التي ستقودنا الى المغرب(١) .

وتذرعت هذه القيادة بملاحقة الامير عبد القادر وقواته داخل حدود المغرب الشرقي ، وفي نيسان (ابريل) من عام ١٩٠٤ حصلت فرنسا على تنازل من انجلترا عن المغرب مقابل اطلاق يدها في مصر ، وَضَمِنَ الاتفاقُ ايضاً مصالِحَ الاسبان . وفي تشرين اول من العام ذاته وُقِّعَ اتفاقٌ سائل مع اسبانيا . وفي السنة ذاتها ثم توقيع اتفاق مع سلطان المغرب قَبِلَ فيه اشرافَ فرنسا على الجمارك مقابل قرضٍ مالي . وفي السنة ذاتها ايضا قامت قوات فرنسية بـأحتلال منطقة "رأس العَيْن" ، وهي شرق المغرب ، وفي السنة التالية (١٩٠٥) يقوم غليوم الثاني امبراطور ألمانية بزيارة طنجة ، وفي عام(١٩٠٦) تصبح المانيا طرفا في مؤتمر (الخُزيرات) الذي يتلخص بيانه في : "ضرورة التأكيد على سلطة ملك المغرب ووحدة بلاده" . في حين أن هذا البيان يُدَوِّل المسائل التجارية والاقتصادية ويعطي فرنسا وضعا خاصا بالنسبة للامن . وقد وصف بأنه ضربة قاصمة وُجّهت لاطماع الفرنسيين (٢) . وحقيقة الامر هي ان الاتفاق انقذ المطامع الفرنسية من خلال مبدأ التدخل في الامن . يقول اغسطين برنار : " لقد قبلنا تضحية في الشكل ولكننا أنقذنا الاساس" (٣) .

وتتسامح المانية مع فرنسا سنة (١٩٠٩) فتعترف في اتفاق دبلوماسي بأن لها الحرية في التدخل لا في شرق المغرب فقط بل في العمق ، وهكذا وصلت

---

(١) محمد خير فارس ، تنظيم الحماية الفرنسية في المغرب (١٩١٢-١٩٣٩) ط دمشق ١٩٧٢، ص ٣

(٢) انظر: محمد خير فارس ، تنظيم الحماية في المغرب ص ٢١

(٣) فارس ، نفسه ص ٢٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قوات الجـــنرال ليوطـي مدينـة فاس .

وفي سنة ١٩١١ حدثـــت ازمـة في اغادير حركت بسببهـا فرنســا قطعـا من أسطولها فاحتلت اغادير والشاوية ووقعـت المانية وفرنسا اتفاقا جديدا اعترفـت فيه الاولى بحماية الثانية للمغرب ، وحقها في فرض النظام . وتحت ضغط القـــوة قبل سلطان المغرب ، المولى عبد الحفيظ (١٩٠٨-١٩١٢) ، معاهدة الحمايـة الموقعة في ١٩١٢/٣/٣٠ ، مخالفا بذلك صك البيعة الذي نادى به سلطانا عامـا للجهاد ، خلفا لاخيه المخلوع عبد العزيز (١٨٩٤-١٩٠٨) (١) .

لمـــاذا الحمايـــة ؟

ثمة اسباب جعلت فرنسا تفضل فرض الحماية على المغرب بدلا من الاستعمـار المباشر ، ومن هذه الاسباب ان تجربتها في الجزائر كلفتها كثيرا من الاموال والدماء كما أن النزاع مع الالمان بلغ الذروة فكان عليها ان تحشد قواتها على حدود المانيـة علاوة على أن الرأي العام الغربي بدأ يجنح نحو رفض الاستعمار المباشر القائم علـى الدّمج والالحاق (٢) . وللحماية تعريفات شتى ، ومختصر القول في هذا الشـأن أن الحماية عقد بين دولتين تتنازل احداهما للاخرى عن عدد من حقوقها في السيادة داخليا وخارجيا ، وعسكريا ، مقابل قيام تلك الدولة بمساعدتها على تطوير مؤسساتها . . . وغالبا ما يكون هذا التنازل تحت ضغط القويّ وطبقاً لشروطه (٣) . ووثيقة الحمايـة التي وقعت في ٣٠/ آذار (مارس) / ١٩١٢ اطاحت بأستقلال المغرب الذي كـان دولة ذات سيادة (٤) ، وتركيب اداري متين من عدة قرون ، وكانت له علاقاتـــه

---

(١) نفسه ص ص ٤ - ٤٠ وانظر ايضا . علال الفاسي ، المغرب العربي ، منذ الحرب العالمية الاولى ، معهد الدراسات العربية ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ص ٦-٣١ . وانظر ايضا : محمد مكي الناصري: موقف الامة المغربية ، تطوان ١٩٤٦ ، ص ص ١٣٩-١٤٧

(٢) انظر : محمد خير فارس : تنظيم الحماية ص ص ٤٦-٤٩

(٣) المرجع نفسه ص ص (٤ - ٤٦

(٤) انظر نص وثيقة الحماية في : محمد مكي الناصري ، موقف الامة الغربية من الحماية الفرنسية ، تطوان ، ١٩٤٦ ص ص ١٨-٢١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وسفاراته مع دول عديدة كايطاليا ، واسبانيا ، والدولة العثمانية ، ومالطة ، والنمسا ، وكانت تعقد بينه وبين هاتيك الدول "الأوراق" (١) .

وفي القرن الثامن عشر ، ولا سيما في عهد السلطان محمد بن عبد الله (١٧٥٧ - ١٧٩٠) ، بلغت قوة المغرب الذروة ، وكان يقدم المعونة من مال وسلاح للدولة العثمانية. (٢) وكانت اول دولة تعترف بحكومة الولايات المتحدة الاميركية بعد استقلالها عن انجلترا ، وانشاء الجمهورية . (٣)

ولا يؤخذ على عقد الحماية ما سبقت الاشارة اليه من انه أملي تحت ضغط القوى ، وأودى باستقلال المغرب فحسب ، وانما يؤخذ عليه ايضا انه عقد مطلق ، ولم يحدّد بزمن (٤) الامر الذي زاد من صعوبة المهمّة الملقاة على عاتق الوطنيين .

كلّف اخضاع المغرب كثيرا . ففي ٢٨ نيسان (ابريل) عينت الحكومة الفرنسية الجنرال (ليوطي) (Lyautey) مقيما عاما في المغرب ، وفي ١٣ (أيار) وصل الى الدار البيضاء ، وفي ٢٣ منه دخل مدينة فاس . وفي ١٢ من آب (اغسطس) تنازل السلطان عبد الحفيظ عن العرش واعتلاه اخوه يوسف. وفي عام ١٩١٦ يعلن لويس بارطو ان المرحلة التي تعقب الحرب العالمية الاولى ستشهد اخضاع المغرب للادارة المباشرة . وتنقسم الاتجاهات في باريس حول المغرب فبعضها يرى ضرورة الضّم والالحاق المباشر ، في حين ان بعضها الاخر يرى اعطاء المغرب شكلا من اشكال الاستقلال الداخلي تحت الحماية الفرنسية . وفي عام ١٩١٩ يصرح المقيم العام بعد عودته من باريس : بأن الحماية معاهدة مضمونة بالاتفاقات الدولية ، وانها لذلك لا يمكن ان تحول المغرب الى مقاطعة فرنسية كما هو الحال في الجزائر . (٥) ومع ذلك فان هذا المقيم هو الذي وضع الاسس

---

(١) انظر : محمد الفاسي ، صفحات من تاريخ المغرب الدبلوماسي، ط دار الكتاب/د ت/ ص ص ١٩ - ٣٨ ، وانظر عبد الرحمن بن زيدان : الدرر الفاخرة ص ٨٧
(٢) عزيز سلام ، المرجع نفسه ، ص ٦٢
(٣) المرجع نفسه ص ٤٢ .
(٤) فارس ، نفسه ص ٥٦
(٥) الناصري ، المرجع نفسه ، ص ١٦٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الاولى للادارة المباشرة ، والاندماج الفرنسي ، ومحو السّلطان ، والحدّ من اختصاصات " المخزن " (١) ونفوذه وقد ساعده في ذلك طول المدة التي قضاها في المغرب (٢) . وبعد تقاعد ليوطي (١٩٢٥) جاء مقيمون ساروا في الطريق ذاته بشكل مكشوف . فسمح الجنرال (سطيغ) بنقل ملكية الاراضي للفرنسيين تحت ستار المصلحة العامة ، وأعطى بذلك الحق لهم في الاشتراك في الانتخابات وعضوية المجالس ، وتشريد القبائل والفلاحين . وتابع اللاحقون هذه الاجراءات التي عجلت في قيام الثورة (٣) .

الادارة الاستعمارية :

لقد تميزت الادارة الاستعمارية بسحب السلطات والاشراف الفعلي من القادة المحلّيين ، وتركيزها في ايدي الاجانب الذين كانوا معنيين في المقام الاول بشؤون الاوروبيين ، باستثناء ما يتعلق منها بشؤون الدين والاوقاف ، بل حتى هذه الشؤون كان لها موظف فرنسي كبير مهمته مراقبة ما يجد فيها من إصلاحات(٤) .

أما رئاسة الشؤون البلدية فكان يتم اسنادها الى (باشا) مغربي ولكن سلطته الفعلية كانت معدومة . ولم يكن الامر يختلف عن ذلك في الغرف التجارية والصناعية وما كان يسمى "شركة المغرب التجارية" ، التي أنشأها (Lyaukey) . وفي ظل هذه الظروف لم يكن ثمة ما يفسح المجال لتعاظم المطالب السياسية ، أو تهيئة البلاد للاستقلال الذاتي (٥) .

(١) كلمة دراجة في المغرب ويعنون بها "الحكومة"
(٢) نفسه ، ص ١٧٥
(٣) انظر المرجع نفسه ص ص ١٨٧ - ١٨٠
(٤) العروي : تاريخ المغرب ص ٣٣٦
(٥) العروي ، نفسه ، ص ص ٣٣٦ - ٣٤٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مقاومـــة الاستعمـــار :

وتوضح مجريات الاحداث أن المغاربة لم يقبلوا الخضوع للمستعمر . ويلخص الجنرال ليوطي (١) . ذلك في رسالة موجهة الى حكومته بباريس فيقول : " ان الشعب المغربي من أشد الشعوب استعدادا للمقاومة والصراع، وان الحماية الفرنسية جاءت بكثير من العناصر التي ايقظت في هذا الشعب ميله الفطرى الى الصراع(٢) ويذكر علال الفاسي أنّ فرنسا تكلفت في اخضاع المغرب نحوا من سبعين الف قتيل وكانت اولى مظاهر المقاومة المسلحة في الجنوب بقيادة الشيخ ماء العينين ، أما الاعيان في فاس فقد قاموا بالضغط على السلطان عبد العزيز الذى وقع اتفاق الحماية للتنازل عن العرش ، ونودى بأخيه اميراً عاما للجهاد ، وكانت شروط البيعة تتضمن بندا لاسترجاع الجهات المقتطعة من البلاد ، وطرد المحتلين الاجانب، والغاء معاهدة الجزيرة الخضراء ، وامتيازات الاجانب مع منع تدخلهم في شؤون الامة(٣) . وبعد فرض الحماية تظاهر الاعيان في فاس. وتمّت السيطرة على الوضع بواسطة العنف العسكرى ، في حين تخلى السلطان عبد الحفيظ عن العرش واعتلاه اخوه مولاى يوسف بن الحسن . أما في الجنوب فقد زحف الهيبة بن الشيخ ماء العينين الى مراكش واستولى عليها ، ثم اعلن نفسه سلطانا محررا بدلا من السلطان المتنازل عن العرش ، ولم يستطع الفرنسيون صد هذه الثورة الا بعد طلب النجدة ، وانصراف بعض زعماء الجنوب ومنهم أقطاب الزوايا والطرقيّين عن الهيبة مما سهل على الاجانب سحق الثورة(٤) . وفي الوقت نفسه قامت ثورة في جبال اطلس المتوسط كان وقودها أبناء قبائل "زيان" يقودهم في هذه الحرب "موحا أو حمو" ولهذا كانت السياسة الفرنسية في المغرب تكتسب طابع الاستخدام الدائم للقوة(٥)

ويمكن القول : ان جميع الثورات التي قام بها المغاربة في الجنوب والجبال كانت ثورات عفوية ، صحيح انها كانت قوية في مقارعة المستعمر ، الا أنها كانت

---

(١) انظر ترجمته (١٩١٢-١٩٢٥) في كتاب محمد خير فارس تنظيم الحماية ص ص ٨٣-٨٥
(٢) الناصرى موقف الامة ص ١٢٣
(٣) علال الفاسي : الحركات الاستقلالية ص ٩٥
(٤) محمد خير فارس، المرجع نفسه ص ص ٩٣-٩٥
(٥) انظر حزب الثورة والاستقلال : هذه هي الحماية في مراكش القاهرة ١٩٥٤ ص ٢٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تفتقر للوعي السياسي . ولكن هذا لا ينطبق على ثورة عبد الكريم الخطابي في جبال الريف ضد الحماية الاسبانية التي دخلت المغرب مع فرنسا واقتصرت على الجزء الشمالي فثورته كانت عسكرية وسياسية ، وكان تأثيرها في بعث الوعي القومي كبيرا . أعلن الخطابي انشاء جمهورية في منطقة الريف هدفها مقاومة الاستعمار الاسباني والفرنسي تمهيدا لاعادة توحيد المغرب على أساس قومي . ولقي مقاومة من العناصر الدينية المتطرفة كالصوفيين والطرقيين . وهو أول من دعا لعقد مؤتمر شعبي حضره ممثلو القبائل للتشاور في وضع ميثاق دستوري لحكومة المقاومة (١) . وأنشأ في سنة ١٩٢١ جمعية اطلقت على نفسها اسم " الجمعية الوطنية " واعلنت هذه الجمعية استقلال البلاد ، وتأسيس جمهورية دستورية يرأسها عبد الكريم الخطابي بصفته زعيم الحرب التحريرية . ووضعت هذه الجمعية دستورا أساسه سلطة الشعب . ولم يفصل بين السلطتين التشريعية والتنفيذية بل وضعهما معا في يد الجمعية ، ووضعت هذه الجمعية ميثاقا قوميا ، كان البند الاول فيه " الغاء معاهدة الحماية الموقعة مع الفرنسيين سنة ١٩١٢ " (٢) .

لقد استطاعت ثورة عبد الكريم الخطابي من (١٩١٩-١٩٢٦) أن تحدث الكثير من الاثار الايجابية ، فعلى الصعيد العسكري تمكن من الحاق الهزائم بالقوات الاسبانية ، وباتت صحف العالم تترقب أخباره بعد أن سكتت صوت المدافع في الحرب الكبرى . وبدأت دول انجلترا وفرنسا تخشى هذه القوة الصاعدة التي هددت فاس والحقت الهزائم المنكرة بالاسبان . أما الذي يجعل لثورة الخطابي هذا التأثير فهو انها ليست قوة عسكرية فحسب ، بل جاءت لتحدث تغييرا جوهريا في نظام الحكم ، وفي طبيعة العلاقة بين المغرب وما حوله من دول . على الرغم من أن موقف الخطابي من السلطات بقي موقفا غامضا . فالكثير يفهم من اعلان الجمهورية انه لا يخضع للسلطة المركزية في فاس التي تقوم على النظام الملكي الوراثي ، وبعض الروايات تشير الى اعترافه بسيادة السلطان على الريف ، في حين أن روايات أخرى تؤكد انه كان لا يرى في السلطان الا اداة طيعة بيد الفرنسيين (٣) .

---

(١) انظر : علال الفاسي ، الحركات الاستقلالية ص ص ١٠٩-١٢٣
(٢) نفسه ، ص ١٢٢
(٣) انظر محمد خير فارس: تنظيم الحماية ص ص ٤٣٢-٤٣٣ وانظر ايضا علال الفاسي الحركات الاستقلالية ص ١٣٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الطابـــع السياسي للمقاومـــة :

بعد التحالف الذى تم بين فرنسا واسبانيا ضد عبد الكريم الخطابى أخـــذ النشاط ضد الفرنسيين طابعا سياسيا . وقد اثر فى ذلك أن المبعوثين من طلبـــة المعلم عادوا من الخارج ، وظهرت فى المغرب بعض الصحف باللغة الفرنسية ، مثـــل مجلة " المغرب " و " عمل الشعب " التى صدرت فى آب ١٩٣٣ ، و" ارادة الشعـــب " التى صدرت فى (٨ كانون اول ١٩٣٣) . واطلاع المغاربة على الافكار السلفيـــــة القادمة من الشرق العربى ممثلة بآراء جمال الدين الافغانى ومحمد عبده ، والاتصالات التى نشأت بين بعض الزعماء والامير شكيب أرسلان صاحب فكرة الجامعة العربيـــــة ، وكانت صلته الحميمة مع محمد حسن الوزانى ، وأحمد بلّفريج ، وكلاهما من زعمـــاء كتلة العمل الوطنى (١) . ويذكر أن للسلفية تاريخا طويلا فى المغرب يرجع الـــى أيام ظهور الحركة الوهابية في الجزيرة .

فقد كان لهذه الحركة تأييد رسمي من السلطان مولاى سليمان (١٧٩٢-١٨٢٢) وفي عهد السلطان مولاى الحسن زار السّنوسي المغرب وتمتع بالحماية والعون . وكانـــت لاراء محمد عبده اصداؤها فى فكر المهدى الوزانى ، والشيخ ادريس بن عبد الهادى ، وحين رجع الشيخ بو شعيب الدكالي من رحلته الحجازية بدأ بنشر الافكار السلفيـــة والاصلاحية ومنها محاربة البدع ، فأيدة السلطان مولاى عبد الحفيظ (١٩٠٨-١٩١٢)

وتبلورت هذه الحركة على يدي العلاّمة المصلح محمد بن العربي العلوى،وكانت تجتمع حوله حلقة من الطلاب فى فاس مثلماهو الحال بالنسبة لابى شعيب الدّكالـــى في الرباط . ويقول علال الفاسى : " إن الحركة السلفية حققت نجاحا فى المغرب لـــم يكن متوقعا . وقد زاد هذا النّجاح وضوحا بعد أن اندرج فيها السلطان محمـــد الخامس الذى كان حربا على المشعوذ ين والطرقيين"(٢) . وكان للسلفية في المغرب مضمونها السياسي الذى يتلخص في أن الاستقلال شرط اساسى لاكتساب الحرّيـــــة

---

(١) انظر : محمد خير فارس ، تنظيم الحماية ص ص ٤٤٢-٤٤٣
(٢) انظر : علال الفاسى ، الحركات الاستقلالية فى المغرب ص ١٣٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(حرية الفرد ، وحرية المجتمع) والدعوة لحكم برلماني يتم فيه اختيار نواب عن طريق الانتخاب .

واعتبار الشريعة الاسلامية مصدراً القوانين ، والفقه الاسلامي تشريعا مدنيا عاما ، ودعت السلفية في المغرب الى توحيد البلاد على أساس قومي ودبني مشترك . وعدم تغليب اى الجانبين على الاخر ، وجعل اللغة العربية لغة عامة مشتركة بين العناصر المسلمة ، فالقومية - في نظر هذه الحركة - تقوم على الروابط الاقليمية وليس على الروابط العرقية ، مستغلّة في هذا الشأن ما عرف عن الاسلام من تسامح ، رافضة مبدأ فصل الدين عن الدولة . . (١)

ظهور الجمعيات الوطنية :

وفي موازاة ذلك ظهرت بعض الجمعيات التي تألفت في المغرب وفرنسا ومصر ، وكانت جمعيات طلابية ذات نشاط سياسي . مثل " جمعية طلبة شمال افريقيا المسلمين " و " جمعية الثقافة العربية " و " جمعية الشبان المسلمين " و " وجمعية الهداية الاسلامية " وجمعية احياء الطلبة "(٢) وأدت سياسة المستعمر القائمة على ايقاظ النزعة العرقية بين العرب والبربر ، واللجوء الى الشعار القديم " فرق تسد " الى يقظة الوعي القومي .

ويرى عدد من الباحثين ، منهم علال الفاسي : ان الشرارة التي اضرمت إوار التيار الوطني هي اصدار " الظهير البربرى " بتاريخ ١٦ (ايار) ١٩٣٠ (٣) ، وتتلخص أغراضه في شق المغرب الى دولتين : احداهما عربية اسلامية والاخرى بربرية يسودها قضاء خاص ، وثقافة خاصة ، تسعى من خلالها الادارة الفرنسية الى تنصير

---

(١) نفسه ، ص ص ١٣٥ - ١٣٧
(٢) علال الفاسي : الحركات الاستقلالية . . ص ١٣٩
(٣) المرجع نفسه ص ١٤١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

البربر واعادتهم الى ما كانوا عليه قبل الفتح الاسلامي (١) . ونظر المغاربة الى هـذا الظهير بصفته تجريدا للسلطان محمد الخامس من سيادته على قبائل البربر ، واحداثا لمحاكم خاصة تتضارب مع الشرع الاسلامي (٢) .

والحقيقة ان الوعي القومي لم يكن رد فعل على الظهير المذكور ، وانمـا كان صدور هذا الظهير تحديا للمشاعر القومية الدفينة التي أخملتها سياسة التفقير والكبت . فقد كانت جماعة " لسان المغرب " التي ظهرت في عهد السلطان عبـد الحفيظ (١٩٠٨ - ١٩١٢) قد اعلنت برنامجا سياسيا عموده الاصلاح القومـي ، ومقاومة التدخل الاجنبي ، وانشاء نظام نيابي ، وتشجيع حركة التعليم الابتدائـي والثانوي ، ونشر المعارف ، واصدار قانون يكفل حرية العمل والقول والفكـر اقتداء بالدول الحديثة المجاورة . ونشرت هذه الجماعة مشروع دستور تدل القـراءة الاولية له على مدى الوعي الذي تميز به المغاربة في مطالبتهم بالديمقراطية ، ولكـن التدخل الفرنسي بخاصة ، والاوروبي بعامة ، هو الذي كبح جماح هذا التحرك ، ومن أجل ذلك كانت ثورة الفاسيين المذكورة سببا في تخلي السلطان عن العرش (٣) .

كان صدور الظهير البربري - كما قلنا - الشرارة التي فجرت نار الوعي القومي في المغرب . وهي سياسة فرنسية اتبعتها فرنسا في الجزائر اولا . ثم اتبعتهـا في المغرب عبر سلسلة من الاجراءات تخالطها النوازع الصليبية والتبشيرية (٤) . ولكن هذه السياسة لم تنجح وانما كشفت عن وحدة المغرب بشقّيْه الشمالي والجنوبي .

ظهـور الوعـي الطبقـي :

من جهة اخرى فإن سياسة التفقير والتجهيل القائمة على نهب الثروات ، وفرض الضرائب ، والتحكم بوسائل التجارة ، والنقل والمواصلات ، والاستيلاء علـى

---

(١) المرجع نفسه ص ١٤٢
(٢) المرجع نفسه ص ١٤٣
(٣) علال الفاسي : الحركات الاستقلالية ... ص ص ٩٧ - ١٠١ وانظر ايضا : علال الفاسي المغرب العربي منذ الحرب العالمية الاولى .. ص ٥٢
(٤) انظر : محمد مكي الناصري : فرنسا وسياستها البربرية في المغرب الاقصى د. ط، د. ص ص ٨ - ١٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الاراضي الصالحة للزراعة ، واستغلال الايدى العاملة ، في المدن الكبرى ، كل ذلك أدى الى بروز الوعي الطبقي . لقد جاء المستعمر الى بلد يمتاز بثنائية اجتماعية غير منسجمة : البدو ، والحضر . ثم وجد من الاقطاعيين بنوعيهم الاقطاع الفلاحي ، والاقطاع الديني ، تعاونا ضعيفا احيانا ، وقويا في بعض الاحيان (١) . ومع توسع الاستثمارات في الموانئ ، ومناجم التعدين والصناعات التحويلية الخفيفة ، تكونت طبقة عمالية . وشجّع على نمو الوعي الطبقي لدى هذه الفئة من الناس العمال الفرنسيون الذين كانوا ينظّمون انفسهم في نقابات ، فالتنافس بين الاحزاب الفرنسية انتقل الى الجزائر والمغرب ، وانضم عدد من عمّال المغرب الى نقابات العمال الفرنسيين بعد سنة ١٩٣٦ (٢) .

ويدلنا على سرعة نمو هذه الطبقة أن عدد العمال المسجلين في الاتحاد النقابي الذى انشئ عام ١٩٣٦ بلغ بعد تسع سنوات فقط مائة الف عامل (٣) . وفي هذا الطور لمع عدد من النقابيين مثل عبد الرحيم بو عبيد ، والمحجوب بن صديق والطيب بوعزة (٤) .

أضف الى ذلك ان الاتحاد العام للعمال الفرنسيين (C.G.T.) التابع للحزب الشيوعي الفرنسي أنشأ له فرعا في المغرب . وقد ضم هذا الفرع عدداً غير قليل من عمال المغرب ولا سيما الذين يعملون في الموانئ . وعن طريق هؤلاء بدأت الحركة العمالية في المغرب تطّلع على افكار جديدة تتعلق بحقوق العامل ، والنظم الاجتماعية والاشتراكية ، وما شاكل ذلك (٥) . وفي البداية انخرط العمال في "الاتحاد المغربي للشغل" الذى أنشأه الاستقلاليون نحو عام ١٩٣٦ . وقام العمال بشن الاضرابات احتجاجا على البطالة التي وصلت نسبتها ٨٠٪ في بعض الاحيان (٦) .

---

(١) انظر : علال الفاسي ، الحركات الاستقلالية ص ٢١٩ وانظر كذلك اشفورد : التطورات السياسية في المملكة المغربية ت د. عائدة عارف ود . احمد ابو حاكمة ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٦٣ ، ص ص ٤٨-٤٩

(٢) علال الفاسي : المغرب الغربي .... ص ١١٦

(٣) نفسه ص ١٣٧

(٤) نفسه ص ١٣٨

(٥) انظر : اشفورد ، التطورات السياسية في المملكة المغربية ص ٣٥٠

(٦) المرجع نفسه : ص ٣٤٧ وما بعدها .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعشية الاستقلال بلغ عدد المسجلين في الاتحاد نحو ٤٠٠ الف عضو (١).
ولكن نشاط الحركة العمالية ظل يعاني من ضعف شديد في البوادى والارياف . وهذا من الاسباب التي جعلت فعاليته بين الفلاحين اقل من فعاليته بين سكان المـــدن الكبرى (٢).

ظهـــور الاحـزاب السياسيـــة :

لقد كان لنمو الوعي القومي والوعي الطبقي ، وسياسة الكبت والتميز بـــين المغاربة والاجانب ، وقمع الحريات الفردية والجماعية ، وتعرض المغرب لرياح الحركـة السلفية التي هبت من الشرق العربي ، زيادة على التبادل الثقافي من خلال المبعوثين الى مصر وغيرها من اقطار الشرق او الغرب ، كان لكل ذلك اثره في تزايد النشـــاط السياسي ، الذى اصطبغ بادئ الامر بالعفوية والفوضى لينتقل بسرعة الى مرحلـــة التنظيم الحزبي . وفي ظنّنا ان تأثّر المغاربة بنمط الحياة الديمقراطية في باريـــس وروما وغيرها من العواصم القريبة من الساحل الافريقي كان سببا في السرعة والاتقـــان اللّذين امتاز بهما الوعي الحزبي هناك .

وليس من شك في ان الجمعيات التي ذكرت سابقا ، مثل " جمعية اصدقـــاء الحق " وغيرها ، كانت النواة التي قامت حولها التنظيمات السياسية . وكان اول تنظيم عفوى هو ما يسمى " بالكتلة الوطنية " التي برزت في خضم الاحداث المرافقة لاصـــدار الظهير البربرى . وتتألف من عناصر كانوا في معظمهم من طلبة الشيخ الحافـــظ محمد بن العربي العلوى في " القرويين " ، وقد اعلنت هذه الكتلة عن نفسها حوالـي عام ١٩٣٢ باصدار دورية باللغة الفرنسية باسم " المغرب " (Magrib) (٣) كما اصدرت ايضا جريدة " عمل الشعب " وهي بالفرنسية ايضا لان سلطة الحمايـــة كانت تمنع اصدار صحف بالعربية وقتئذ . وفي تطوان اصدرت مجلة " الســـلام "

---

(١) المرجع نفسه : ص ٣٥٣
(٢) نفسه ص ٣٦٥
(٣) الفاسي ، الحركات الاستقلالية ، ص ١٦١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

و مجلة " الحياة " وكلاهما بالعربية وكانت هذه الجماعة تلجأ الى بث فكرها وسياستها وثقافتها من خلال الدروس الدينية في جامعة القرويين . ولعل من صلب اهداف هذه الحركة : الاستقلال بزعامة محمد الخامس(١) .

وشغلت الجماعة - أول الامر - بتقديم المطالب سواء الى السلطان - محمد الخامس - او الى المقيم العام الفرنسي . وفي مقدمة هذه المطالب :الإصلاح الاداري واطلاق الحريات الديمقراطية العامة ، والغاء امتيازات الاجانب ، واحلال مجالس محلية مغربية عوضا عن المجالس الفرنسية . وفي سنة ١٩٣٦ عقدت هذه الحركة اجتماعا عاما في " الدار البيضاء " متأثرة بما كانت تسمع عن حكومة الجبهة الشعبية " والفرنسية " من تسامح مع الوطنيين،ولكن الادارة حاصرت المجتمعين والقت القبض على مترئسي المؤتمر (٢) .

من الكتلة الوطنية الى حزب الاستقلال :

ولم تصبح هذه الكتلة " حزبا الا في سنة ١٩٣٧ بحيث وضع لها نظام داخلي ، واختير لها مجلس تنفيذي ، ومجلس وطني ، وانتخب علال الفاسي أول رئيس لهذا الحزب الذي وصف بأنه " حزب ديمقراطي ، يُنتخب مسيّروه ، بمقتضى التصويت السرّي (٣) ". وانشق بعد ثلاثة أشهر عن الحزب الجديد زعيم منافس للفاسي هو " محمد حسن الوزّاني " فأنشأ حزبا جديدا اطلق عليه اسم " الحركة القومية "(٤) . أما كتلة العمل الوطني التي اصبحت حزبا فقد صار يطلق عليها اعتبارا من (تشرين اول) ١٩٣٧ اسم " الحزب الوطني " . وتحول الحزب للعمل السري بعد أحداث فاس (١٩٣٧) والقاء القبض على رئيس الحزب ونفيه الى الغابون . وفي سنة ١٩٣٨ عاد جميع قادة الحزب الى مواقعهم واستأنفت قوات الحماية ملاحقتها

(١) الفاسي ، المرجع نفسه ص ١٦١
(٢) نفسه ص ص ١٨٥ - ١٩١
(٣) علال الفاسي ، الحركات .. ص ١٩٢
(٤) المرجع نفسه ، ص ١٩٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لأولئك القادة(١) . واهتم الحزب في بداية تكوينه بالتنظيم . وكانت له لجان متخصّصة بأنواع الانشطة ، ومنها لجنة خاصة بالاصلاح الاجتماعي ، وأخرى بالتربية وفتح المدارس ، وأخرى بالصحافة والتوعية .

وقام الحزب على مبدأين اساسيين هما : التمسك بالدين الاسلامي ، والنظام الملكي (٢) . ويتلخص موقفه من الفقر - وهو من المشكلات المثيرة للجدل في المغرب - بالدعوة للاهتمام بالطبقات الفقيرة ، وتحسين احوالها بايجاد العمل وتمتعها بالملكية العائلية " فالشعب لا يمكن أن يعيش على الصدقة والاحسان " (٣) .

وفيما كان الحزب الوطني يركز نشاطه في وسط المغرب والجنوب نشأ حزب في المنطقة (الخليفيّة) الخاضعة للاسبان ، وكان اسم ذلك الحزب : (حزب الاصلاح الوطني) ويتألف برنامج الحزب من عدة مبادئ في مقدمتها التوكيد على وحدة المغرب مع التبعيّة للسلطان العلويّ ، واسلاميّة الدولة مع تطبيق القوانين والشرع . والدعوة للشورى على ضوء الانظمة الحديثة التي برهن التطبيق العملي على صلاحيتها للمجتمع البشري ، وكانت لهذا الحزب صحيفة تُعبّر عن رأيه وهي صحيفة " الحياة " (٤) .

ومن جهة اخرى ظلت المحاولات دؤوبة لرأب الصدع بين الحزب الوطني والحركة القومية . وفي " كانون الثاني (يناير) ١٩٤٤ تمكن الطرفان من الدعوة لمؤتمر شعبي في الرباط تمخّض عن اعلان حزب جديد هو حزب " الاستقلال " . وقد تم انتخاب لجنة تنفيذية للحزب . وكان الطابع المميز لهذه اللجنة ان جل أعضائها من رؤساء المجالس البلدية والشخصيات البارزة كالقضاة وأساتذة جامعة القرويين وموظفين حكوميين كبار . وكان المبدأ الذي قام عليه الحزب الوطني هو المبدأ الذي قام عليه حزب الاستقلال (٥) .

---

(١) المرجع نفسه ، ص ٢٢٤
(٢) المرجع نفسه ص ص ١٩٩ - ٢٠١
(٣) علال الفاسي : الحركات الاستقلالية .. ص ٢١٢
(٤) المرجع نفسه ص ص ٢٢٦ - ٢٢٧
(٥) المرجع نفسه ص ص ٢٤٥ - ٢٤٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأكد الحزب بالاضافة الى المبادئ التي ذكرناها سابقا على ضرورة بنـــاء نظام ديمقراطي كالذي يشيع في الدول الغربية ، والمزج بين القوانين المستمدة من الشرع الاسلامي والقانون الغربي ، وانشاء محاكم جديدة على الطراز الغربـــي وحلا للمشكلة : " البروليتارية الفلاحية " دعا الحزب الى تقسيم الاراضي على الفلاحين ليتسنى لابناء القرى الحصول على ملكية صغيرة ، أو متوسطة ، ودعا الحزب أيضـــا الى فرض التعليم الالزامي . وتأميم المرافق العمومية ومصادر الدخـل القومـــي . وعلى الصعيد الاقتصادي دعا الحزب الى النظام الاقتصادي المفتوح (الحـــر) على غرار الانظمة المعمول بها في الدّول المجاورة .

ونادى بالحدّ من تمركز رؤوس الاموال الاجنبية في البلاد ، ولم يدع الـــى الغائها . كما طالب بوضع ضريبيّ جديد يساوي بين المكلّفين ، وباستقلال الدرهـــم المغربي عن الفرنك الفرنسي . والخلاصة ان الحزب لم يتبّع مذهبا من المذاهـــب المعروفة ، ولم يقتصر دفاعة على طبقة اجتماعية (١)" .

وفي هذا الطور من اطوار حزب الاستقلال لمع أحمد بلفريج الذي انتخـــب غير مرة امينا للحزب ، ورأس اول وزارة الفها الحزب بعد الاستقلال . وكان بلفريـــج هذا زعيما لجمعية " أصدقاء الحق " السرية ، التي اصبح اسمها فيما بعد " العصبة المغربية " . وهو ينحدر من اسرة بورجوازية درس في باريس ، وكان يلتقي الامـــير شكيب ارسلان (٢) .

وظـل حـزب الاستقلال منذ تأسيسة الى سنة ١٩٥٨ الحزب الاكبر فـــي البلاد . وترجع شعبيّته الى عدة عوامل منها التفافه حول محور الاستقلال الذي كان أمل المغاربة في العيش الكريم ، وتمتعه بقيادة حكيمة ، مصمّمة و شجاعة ، ومثقفـــة ، وانضمام السلطان محمد الخامس (١٩٢٧-١٩٦١) للمعارضة الوطنية بقيادة كتلـــة العمل الوطني التي كان الحزب تطويرا لها ، وكانت علاقاته بقيادة الحزب قويةوطيدة (٣)

---

(١) انظر : علال الفاسي ، الحركات الاستقلالية . ص ص ٢٥١-٢٥٥
(٢) انظر : محمد خير فارس ، نظام الحماية الفرنسية في المغرب ص ٤٤٩
(٣) المرجع نفسه ، ص ص ٤٦٥ - ٤٦٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التنظيمات الحزبية بعد الاستقلال :

على أن هذا الحزب الذى ظلّ الجميع يعترفون بفضله على الاحزاب الاخرى في النضال من أجل الاستقلال لم يستطع ان يحافظ على تماسكه ووحدته بعد تحقيق اهدافه المباشرة . ففي سنة ١٩٥٦ آختار محمد الخامس رئيس وزراء من خارج الحزب وهو " مبارك البكاى " . وفي العام نفسه تم تأليف جمعية وطنية على غرار الجمعية الوطنية في باريس ، تتألف من ستة وسبعين عضوا . واصبح المهدى بن بركة أول رئيس لهذه الجمعية التي كلّفت بالإسراع فى (دمقرطة) البلاد . وفى هذه الظروف بدأ التصدع يجتاح الحزب وجنح التيار اليسارى الى انتقاد الحكومة التى ألفها احمد بلفريج بعد استقالة حكومة البكّاى وحكومة عبد الله ابراهيم ، وكانت الثّغرة التى وُجّهت الانتقادات من خلالها قبول الحكومة لاحتفاظ الملك بالسيطرة على الجيش والأمن والدّاخليّة ، وتتلخص مطالب اليساريين فى أن تكون للحزب صلاحيّة الاشراف على هذه الاركان الأساسية الثلاث . وتألفت نواة الاتجاه اليسارى للحزب من المهدى بن بركة ، وعبد الرحيم بو عبيد ، وعبد الله ابراهيم ومحجوب بن صديق وكلهم من النقابيين . وأخذ زعماء الحزب من امثال علال الفاسى ، واحمد بلفريج واليزيدى ، يتّهمون التيار اليسارى بالوقوع تحت تأثير الشّيوعية (١) . وحقيقة الامر هى أن حزب الاستقلال بالرغم من قاعدته الشعبية العريضة لم يستطع التكيّف مع الاوضاع الجديدة التى تلت الجلاء الاستعمارى .

فقد كان عليه ان يواجه تركة ثقيلة تتمثل فى : وضع اقتصادى متدهور جدا ، يقول عبد الله ابراهيم فى وصف هذا الوضع : "إن اقتصادنا لم يتغير بعد الاستقلال ، فعملتنا ما تزال مقيدة بقيود اجنبية ، والإدارة الوطنية يسيّرها اشخاص ليسوا من المغرب ، والطاقة الجسمانية للأمة مبددة ، ومستوى المعيشة ينخفض يوما عن يوم ، بينما تحتل القوى الاجنبية البلاد ... وتتحدى رغبات اهلها كل يوم وكأنها تعمل لإرساء حماية جديدة ... (٢) .

---

(١) بوم لاندو : مراكش بعد الاستقلال ، تعريب خيرى حماد ، ط١ ، بيروت ، ١٩٦١ ، ص ص ٣٦-٣٨
(٢) أشفورد دوغلاس : التطورات السياسية فى المملكة المغربية ص ٣٧٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكان عليه أن يواجه مشكلة القواعد الأجنبية من فرنسية وأمريكية تم انشاؤها خلال الحرب العالمية الثانية . واستعادة منطقة طرفاية - في جنوب المغرب - من الاسبان . والنهوض بالتعليم الذى كان فى عهد الحماية يعانى من اشد السلبيات خطورة ، وهى اقتصاره على النخبة الارستقراطية فى المدن . والاصلاح الزراعى (١) . وهذه التحديات جعلت الحزب يكتشف انه لم يكن منظما تنظيما متماسكا . وأنه لم يكن ذا برنامج واضح ومحدد ، وأن الجماهير التى انساقت الى الحزب بعفوية متعاطفة مع هدفه الوطنى القومى وهو "الاستقلال" لم يكن لديها أو لدى قادتها أى برامج اخرى (٢) .

وهذا الوضع اثار سخط الجانب النقابى فى الحزب مما صعّد حدّة الخلافات التى انتهت فى عام ١٩٥٩ الى انشقاق الحزب وانشاء حزب جديد باسم "حزب الاتحاد الوطني للقوات الشعبية" تزعمه عبد الرحيم بو عبيد والمهدى بن بركة وعبد الله ابراهيم ، وكان محور الخلاف بين حزب الاستقلال القائم ، والحزب المستحدث : الإشكالية الاقتصادية ، والسياسة الخارجية (٣) .

حزب الاتحاد الوطني :

وقد جاء في ميثاق الاتحاد الوطني للقوات الشعبية الصادر في ٦ ايلول من ١٩٥٩ ان برنامج الحزب يقوم على مبادىء اساسية في مقدمتها الدفاع عن استقلال البلاد ، ووحدتها الوطنية ، وجلاء القوات الاجنبية ، وتصفية القواعد ، وهذا ما كان يتردّد فيه حزب الاستقلال ، ثم اتباع سياسة في المجال الاقتصادى تؤدى الى التحرر من التبعية للاجنبى ، وانتهاج سياسة فى التصنيع وتأميم المرافق ، والإسراع

---

(١) روم لاندو ، مراكش بعد الاستقلال ص ٤٢ و ٤٣
(٢) اشفورد التطورات السياسية .. ص ص ٢٨١-٢٨٥
(٣) المرجع نفسه ص ٢٩٢ وهو الحزب الذى يعرف الآن باسم الاتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية "وما زال عبد الرحيم بو عبيد يحتفظ بزعامته له .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في الاصلاح الجوهرى للادارة . أما في ميدان التعليم فقد دعا الحزب الى اتبـاع سياسية عصرية . واقامة ديمقراطية حقيقية تضمن لجميع المواطنيين تسيير شؤونهـم بأنفسهم فى دائرة الملكية الدستوريـة (١) .

ومما يلاحظه الباحث على برنامج هذا الحزب انه لا يشير الى طابع الدولـة الدينى مثلما هو الحال لدى حزب الاستقلال ، كما أنه لا يلح على ضرورة التوفيـق بين النظم الاسلامية فى الحكم ونظم الديمقراطية فى المغرب ، وهو ينص صراحـة على أن تكون الديمقراطية اجتماعية واقتصادية وليست ديمقراطية الحكم فقط ، وهـو لا يرفض الملكية ، رغم نزعاته الاشتراكية التي عبر عنها غير واحد من زعمائه (٢) ، ولكنه يقيد هذه الملكية بالدستور الديمقراطـي .

أحـزاب أخـرى :

وظهرت في المغرب احزاب اخرى مثل حزب الشورى والاستقلال الذى تطـور عن حركة الوزاني . وحزب الاحرار المستقلين الذى يضم نخبة من رجال الحكومـة المتازين الذيـن عملوا في وظائف في القصر . وليس لهذا الحزب برنامج سياسـي بالمعنى الدقيق (٣) . وحزب الحركة الشعبية الذى بدأ الاعداد له نحو عام ١٩٥٥ ، ولم يعلن عنه الا في سنة ١٩٥٧ .

وكانت زعامة هذا الحزب من رجال القبائل البربرية ، منهم الحسن اليوسـي ، ومحجوبي أحرضان ، وعبد الكريم الخطيب . وقد اتهم هؤلاء الثلاثة بأنهم يرمون الى احياء النزعة البربرية ، وتحقيق ما عجز الاستعمار عن تحقيقة ، بأسلوب جديد ، وشبـه هذا الحزب بحزب البعث السورى . ويتلخص برنامجه في الدعوة لتطهير الجهـاز

---

(١) انظر ، روم لاندو ؛ مراكش بعد الاستقلال ، ص ص ١٦٢ - ١٦٦
(٢) انظر تصريحات محجوب بن صديق في : اشفورد دوغلاس ، التطورات السياسية في المملكة المغربية ، ص ٣٧ وانظر تصريحات بن بركة ، المرجع نفسه ص ص ٤٢٩ - ٤٣٨ .
(٣) أشفورد ، نفسه ص ٤٢٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الادارى من الاجانب ، وعدم التردد في مناصرة ثورة الجزائر.واتهم الحكومة بالتراخي ازاء مسألة القواعد الاجنبية في البلاد . ودعا ايضا الى نظام اشتراكية اسلامي ، وقيام اتحاد جديد بقيادة محمد الخامس ، واعتباره اماما جديدا وزعيما روحيا لجميع الشمال الافريقي (١) .

ومن الاحزاب التي ظلت سرية طوال فترة الحماية وفي اوائل الاستقلال الحزب الشيوعي المغربي .

ويرجع التغلغل الشيوعي في المغرب الى فترة حكم الجبهة الشعبية في باريس (حوالي عام ١٩٣٦) فقد أسست أولى الخلايا الشيوعية الفرنسية في الدار البيضاء ، ونشر اول بيان للحزب سنة ١٩٤٤ متضمنا اول هجوم له على حزب الاستقلال وفي العام التالي اصدر هذا الحزب بيانا أيّد فيه موقف الحزب المذكور من الحماية ، وظل الحزب حتى عام ١٩٥٨ يصدر نشرة صحفية سرية . وفي صيف ١٩٥٨ ظهرت صحيفة " الوطن " ، وهي صحيفة ذات وجه شيوعي ، وافتتحت مكتبات لبيع الكتب الماركسية بأسعار منخفضة .

وكانت برامج هذا الحزب - الذى اصبح اسمه الان حزب التقدم والاشتراكية (٢) تضع المصلحة الوطنية فوق كل اعتبار ، كما طالب بالغاء معاهدة فاس (الحماية) والتحرر من قبضة الرأسمالية . وتأميم بعض الاراضي والثروة المعدنية وتطهير البلاد من الاقطاعيين "والخونة " وجلاء القوات الاجنبية ، والغاء القواعد الامريكية بأسرع ما يمكن (٣) .

---

(١) المرجع نفسه ص ٤١٣

(٢) انظر : حزب التقدم والاشتراكية : تحليل، اهداف ، مفاهيم ، الدار البيضاء ، ١٩٧٩ .

(٣) اشفورد دوغلاس ، التطورات السياسية فى المملكة المغربية ص ص ٤٢٣ - ٤٢٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الاحـزاب والنزاع الايديولوجـــــي :

والمتأمل لشريط الاحداث التي عصفت بالمغرب في اوائل القرن ، وما صاحبها من حوادث العنف ، يلاحظ أنها كانت ذات تأثير كبير في الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية ، بل هي ذات أثر كبير في التحولات التي طرأت على البناء الاجتماعـــي المغربي ، وانتقاله من طور البنية الثنائية (بدو + حضر) الى بناء متنوع الطبقـات تحتل البورجوازية الصغيرة فيه مكانة كبرى ، الى جانب الطبقة العاملة التي ظهـرت في المـدن .

وقد كان لنشوء الاحزاب ، وما ساد بينها من تنافس على الاستقطاب ، ومـا عصف فيها من انشقاق ، قاد الى التنافس الايديولوجي ، واستئناف الحوار ، حـول مسائل الديمقراطية ، والاشتراكية ، والتحرر الاقتصادي ، وتطهير البلاد مـــن الاقطاع ، كل ذلك ، مع ما رافقه من صدور صحافة للاحزاب ، فتح المجال لظهـور تيارات ثقافية جديدة ، ومتناحرة ، فكل تيار يتبنى برنامجا من برامج هذه الاحـزاب ، ولكن هذه البرامج على ما بينها من فروق في التفاصيل الصغيرة يمكن حصرها فـي برنامجين اثنين أحدهما محافظ ، وهو الذي تعلو فيه نغمة حزب الاستقـلال ، وتشبثه بالتراث القومي والديني والنظام الملكي ، وافتقاره الى برامج واضحة محددة بشأن الاقتصاد الوطني ، والسياسة الخارجية ، وثانيهما (راد يكالي) ينزع الـى التطرف ، وتبني الاقتصاد الاشتراكي ... ومحاربة التميز الطبقي ، الى جانب ان هذا البرنامج لا يعلن الحرب على النظام الملكي . وهذه البرامج تكوّن النواة للبنـاء الثقافي المعاصر في المغرب . هذا البناء الذي تنعكس فيه النظرة المزدوجـة الى الواقع ، والى الحياة ، والى التاريخ . ولقد لعب الشعر دورا كبيرا في تصوير الاحداث . وكان الشعراء سلفيين في الغالب غير أننا لا نستطيع اغفال " محمـد الحبيب الفرقاني " و " الأسفي " وكلاهما كان يعبر عن وجهة النظر الاخرى . ونستطيع ان نجد هذا الوضوح لدى كتاب الرواية ، والقصة القصيرة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالنظرة المتانية العميقة لشريط الاحداث ليست من نوافل الامور بل هي نظرة في غاية الاهمية لان هذه الاحداث هي القاعدة التي نهض عليها البناء الروائي في المغرب وهذا ما سنقف عنده في الفصول التالية من هذا البحث .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سوسيولوجية التعليم :

تقتضي المعرفة التامة بالمتن الروائي المغربي آن نضعه في السياق الثقافي الذي هو جزء منه يؤثر فيه ويتأثر به والثقافة في المغرب ثقافة ذات تاريخ ، والنظرة الشمولية الى تاريخ هذه الثقافة تعطي الانطباع بأنها كانت تتميز عن ثقافة المشرق بشيء من الحيوية فيما كانت تلك تغط في جمود مستمر خلال العهد العثماني . ومع ذلك فان تراجع التعليم في المغرب لم يكن بأحسن حالا من المشرق وكان التعليم في الفترة التي سبقت سنة (١٩١٢) تعليما تقليديا متخلفا رغم الاصلاحات القليلة التي أحدثت عليه ، وكان يقتصر في المدارس (الاصيلة) (والقرويين) على دروس الفقه والتفسير وقواعد النحو والصرف مع تحريم النظر في علوم الكلام والمنطق والفلسفه وسائر العقليات . (١)

وفي عهد الحسن الأول تم ارسال بعض البعثات التي حاولت ان توجه الانظار نحو التعليم النافع والمفيد . وفيما بعد - أي في ظل الحماية - تم انشاء مدارس عصرية حكومية وأخرى خاصة (حرة) لمواجهة هيمنة السلطة الاستعمارية على التعليم . (٢)

واذا كان التعليم يمثل حجر الزاوية في البنية الثقافية المغربية المعاصرة فاننا مطالبون بالقاء نظرة شمولية وفاحصة لهذا الجانب . واشارة عبد الله كنون الى هيمنة المستعمر على التعليم ليست اشارة عابرة ، فقد ارادت فرنسا منع المغاربة من التوجّه الى المشرق لتلقي العلم فأحدثت اصلاحات جزئية محدودة في بنية التعليم (الاصيل) في القرويين واخضعته لاشرافها المباشر . (٣) وفعلت التي نفسه في كلية بن يوسف في مراكش . (٤) أما التعليم العصري فقد حالت ظروف المغرب الخاصة دون وجوده ولم يعرف المغاربة طرا المدارس الحديثة التي عرفها السوريون

(١) محمد عابد الجابري : اضواء على مشكلة التعليم في المغرب ، ط١ ، دار النشر المغربية ، الدار البيضاء ، د.ت ، ص ص ٧-٩
(٢) عبد الله كنون : احاديث عن الادب المغربي ، ط٣ ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، ١٩٨١ ، ص ص ٣٨-٣٩
(٣) الجابري ، المرجع نفسه ، ص ١٠
(٤) المرجع نفسه ص ١٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واللبنانيون والمصريون في القرن التاسع عشر باستثناء الطائفة اليهودية التي كانت قد أنشأت عددا من المدارس الحديثة في بضع مدن منها الدار البيضاء والرباط وكانت فائدة هذه المدارس مقصورة على أبناء تلك الطائفة . (١)

وفي سنة (١٩١٧) قدمت الحماية بموجب اتفاق مع المرابطة (الاسرائيلية) كل دعم لهذه المدارس . (٢) وعرف المغرب عددا من المدارس الحديثة الخاصة ببعض الجاليات الأجنبية من فرنسيين واسبان وقامت السياسة التعليمية الفرنسية بعد الحماية على أساس التفريق بين المسلمين واليهود والاجانب في المدارس. وتركيز التعليم في النخبة من أبناء الأعيان ، مع ابقاء المدن الفقيرة والأرياف يعمها الجهل ، وتسودها الامية ، لتطبيق المبدأ الذى اعلنه (هاردى) " يجب اخضاع النفوس بعد أن تم اخضاع الابدان " . (٣)

ولتحقيق هذا الهدف قام التعليم الفرنسي في المغرب على طائفة من المبادئ في اولها انتقاء طلبة المدارس على اساس طبقي . والغاية هي منع هؤلاء الشبان من مغادرة المغرب للدراسة في الخارج تجنبا للمتاعب التي يثيرها المبعوثون عند العودة . وفي الوقت ذاته المحافظة على الروح الدينية في المدارس وابقاء المغاربة على وضعيتهم التقليدية المحافظة ، والابقاء على نوعية الفكر السائد (٤) وفي الفترة التي أعقبت سنة (١٩٣٠) شرع التعليم الفرنسي في المغرب بالتركيز والالحاح على التفرقة بين البربر والعرب . وانشيء في هذا الطور التعليم البربرى الذى تمثل في مدارس سعت لانشاء جيل مغربي منقطع الصلة بجذوره وتراثه العربي (٥) وكان الاطفال يتلقون في هذة المدارس تعليما فرنسيا خالصا يطغى علية الطابع المهني والزراعي (٦) . وكانت هذه المدارس تخلو من أى مظهر ينم على انها مدارس موجودة في وسط مغربي أو عربي اسلامي سواء في المواد المقررة ، أو في تصميم الابنية ، أو في المظهر العام للطالب والمدرسة . (٧)

---

(١) نفسة ص ص ١٣-١٤
(٢) نفسة ص ١٦
(٣) نفسة ص ص ١٨-١٩ ، وهو احد الجنرالات الفرنسيين الذين انيطت بهم مسؤلية الاشراف على التعليم.
(٤) محمد عابد الجابرى ، المرجع نفسة ص ص ٢١-٢٤
(٥) المرجع نفسة ص ٢٩
(٦) المرجع نفسة ص ٣٠
(٧) المرجع نفسة ص ٣١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولكن هذه المدارس ما لبثت أن ألغيت بسبب الضغط الجماهيري الذي تفجر بعد اصدار الظهير البربري، وظهرت في الفترة التي تلت احباط السياسة البربرية المدارس الحرة التي اشرف على انشائها وادارتها والتعليم فيها مفكرون ومصلحون من المغرب. وارتفع عدد الطلبة في هذه المدارس من بضعة آلاف سنة (١٩٣٧) الى (٢٠) الفا سنة (١٩٥٤) مما يدل على شدة الاقبال الذي لاقته هذه المدارس من الاهالي.(١) ورافق ذلك ظهور الدعوة لاصلاح التعليم في القرويين وفي مدرسة بن يوسف في مراكش. الا أن هذه الصحوة للأسف - لم تتسع لتشمل البوادي والأرياف بل زاد الطين بلة الغاء الكتاتيب في هذه المناطق (٢) وكان الهدف من ذلك بالطبع هو ابقاء الاغلبية من المغاربة في القرى والارياف والبوادي والجبال دون تعليم، لا سيما اذا تذكرنا بأن سكان القرى في ذلك الحين كانوا يمثلون نسبة (٩٠ ٪) من سكان المغرب (٣) ولم تزد نسبة الاطفال الذين سمح لهم بالتعلّم في تلك المناطق عن (٧٪) من الاطفال البالغين سن الدراسة. (٤)

وقد امتاز التعليم في المغرب بتهافت ابناء الأعيان والنخبة في المدن على الدراسة في مدارس الجاليات الاجنبية الاوروبية (٥) وكانوا يفضلون هذه المدارس على غيرها من أجل أن يضمنوا فرص التعليم العالي في الخارج.(٦) ونتيجة ذلك وجد المغرب غداة الاستقلال أمام عقليتين تعليميتين، احداهما غربية، والثانية عربية اسلامية وليدة المدارس الحرة، والتوجة الى المشرق. وانتهى الصراع بين هاتين العقليتين الى وضع شديد التعقيد يعيشه التعليم المغربي الآن. ويؤثر تأثيرا كبيرا في البنية الثقافية السائدة. (٧)

ويتلخص الوضع التعليمي في المغرب في مشكلتين احداهما تتصل بلغة التعليم التي نشأ عنها مشكل التعريب، والثانية تتصل بجنسية المعلمين، ونشأ عنها مشكل (مغربة) التعليم. وحالت المشكلة الاولى دون امتداد التعليم الى جميع

---

(١) انظر الجابري، المرجع نفسه ص ص ٣٤-٤١
(٢) المرجع نفسه ص ص ٣٢-٣٥
(٣) المرجع نفسه ص ٤٣
(٤) المرجع نفسه ص ٤٣
(٥) المرجع نفسه ص ٤٣
(٦) المرجع نفسه ص ٤٤
(٧) المرجع السابق ص ص ٤٧-٤٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المناطق . في حين تسبب عن الاستعانة بالمعلمين الاجانب ابقاء التعليم صورة عن التعليم في الخارج بحيث لم يعد ينسجم مع متطلبات البيئة والواقع المحلي . ونشأ عن ذلك ايضا مشكلان جديدان هما :مشكل التعميم : أى جعل التعليم يصل الى كل مكان . ومشكل التوحيد أى جعل المدارس نوعا واحدا والغاء التعددية القائمة في انماط هذه المدارس .(١) وقد فشلت كل المحاولات الرامية لوضع الحلول لهاتيك المشاكل .(٢)

ويمكن ان نصف الوضع الراهن للتعليم في المغرب بما وصفناه به عند الحديث عن التعليم في أثناء الحكم الفرنسي ، فلى أنواع المدارس، التي عرفها المغرب خلال عهد الحماية، ما تزال قائمة الى الآن ، بالشكل والمضمون نفسه ، بل ربما بانحراف اوسع عن المطامح المغربية الوطنية، فقد بقي التعليم (الاسرائيلي) قائما بعد الاستقلال بل تخلص من بعض القيود القليلة التى كانت تفرضها عليه حكومة الحماية . وحافظ التعليم الخاص(الحر) على وجوده مع الاتجاه نحو تكريس الازدواجية، واتخاذ التعليم تجارة. أما التعليم الأصيل فقد ظل بين مد وجزر فتارة يجرى الاعداد لحذفه من التعليم، وطورا يجرى الاعداد لبعثه من جديد .(٣)

علاوة على ذلك فان التعليم في المغرب يعاني من التبعية التامة لنظام التعليم الفرنسي وتطوره ، بحيث يجرى تقليد ما يحدث في فرنسا تقليدا أعمى ، وبحيث يمكّن فرنسا من اجراء التجارب التربوية في المغرب قصد تنفيذها في فرنسا اذا نجحت، ومثال ذلك تدريس الرياضيات المعاصرة في الصفوف الثانوية في المغرب وبعد أن نجحت التجربة تم تعميمها في المدارس الفرنسية .

ويعاني التعليم المغربي أيضا من اضطراب النظام التعليمي وخضوع البرامج والخطط لموازين القوى السياسية، فاذا كان الميزان في مصلحة الفئات البورجوازية العصرية اتجه التعليم الى التحديث، واذا مال في الاتجاة المضاد (البورجوازية التقليدية) اتجة التعليم نحو الاهتمام بالتراث .(٤)

---

(١) المرجع السابق : ص ص ٦٨-٧١
(٢) المرجع السابق : ص ص ٧٢-٧٧
(٣) الجابرى بالمرجع نفسة ص ص ٧١-٧٥
(٤) المرجع نفسه ص ص ٨٠-٨١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويعاني التعليم زيادة على هذا وذاك من تركيزه في المدن ، وعدم الانتشار في القرى والمناطق ، مما نشأ عنه عدم التناسب في توزيع المدارس، فالقاطنون في الأرياف يمثلون الآن (٦٥٪) من مجموع السكان ، ويمثل سكان المدن (٣٥٪) فقط، في حين أن المدارس في القرى والارياف تمثل ما نسبته (٣٠٪) أي أن المدارس الموجودة في المدن تبلغ نسبتها (٧٠٪) من مجموع المدارس في المغرب. ولهذا فان عدد الطلبة في المدن يفوق كثيرا عدد الطلبة في القرى . يضاف الى ذلك ان العدد الضئيل من المدارس الموجودة في القرى يعاني من نقص في المعلمين ، والتجهيزات، مما يؤدي الى نتائج دراسية عقيمة تتمثل في كثرة الرسوب، وكثرة المفصولين لتكرار الرسوب .(١)

وما من شك في ان هذا الواقع التعليمي له أثره الكبير على القراءة والقراء في المغرب . واذا تذكرنا أن الأدب - بمعنى من المعاني - ضرب من التواصل بين المبدع الخالق والقارئ المستهلك لهذا الانتاج وجب أن نراعي هذه المسألة المهمة ونحن نتلمس ملامح السياق الثقافي الذي احتضن المتن الروائي المغربي ونمّاه .

سوسيولوجيّة القراءة :

ويستفاد من دراسة ميدانية " حول القراءة والقارئ في المغرب " أنّ النسبة الكبرى من القراء توجد في المدن ، وأن اغلبية القراء يقرأون بدافع استكمال المقرر المدرسي ، أو لتزجية أوقات الفراغ، أو لاغناء الخبرة . كما تدل هذه الدراسة على عدم توفر الكتاب بالشكل الكافي ، فليس ثمة مكتبات عامة، وللمكتبة البيتية الخاصة دور أفضل بكثير من المكتبة العامة، ومع ذلك فالاقبال على قراءة الكتب في تحسّن مستمر فالنسبة ترتفع كلما اقتربنا من الزمن الذي أجريت فيه الاستبيان وهو عام (١٩٨٢)، واعلى نسبة هي نسبة الاقبال على قراءة المجلات والصحف اليومية، وان كانت الصحف والمجلات تؤدي دورا في ارشاد القارئ لاختيار الكتب يفوق الدور الذي يقوم به المكتبيون .(٢)

---

(١) الجابري ، المرجع نفسه، ص ص ٢٠١-٢٠٧
(٢) الكرمل ، عدد ١١ ، ١٩٨٤ ، القراءة والقراء في المغرب ، ص ص ٢٣٨ - ٢٦٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ونلاحظ أن النتائج المذكورة سابقا ترتبط بالوضع التعليمي ومن حسن الحظ أن هذه الدراسة التي وضعها محمد بنّيس(١) وأحمد الرضاوي تعطينا مؤشرا جيدا على الوضع الادبي . فقد دلت على ارتفاع كبير في درجة الاقبال على قراءة الادب . واحتلت القصّة المرتبة الاولى من اهتمامات القراء (١٦ر٨٪) بينما احتل الشعر المرتبة الثالثة بعد القصة، والدروس المقررة (١٢ر٥٪) ، وهذا ينفي ما يتكرر ذكره في الصحف ووسائل الاعلام من أن الأدب الابداعي ليس له قارئ .

ويدل ارتفاع نسبة المقبلين علي القراءة باللغة العربية (٥٧ر٠١٪) على انقلاب التوجه العام للتعليم، وأنشطة الجمعيات الثقافية، والحضور القوي ، زيادة على فشل السياسة التعليمية الرافضة للتعريب . وهي ظاهرة تميز المثقف المغربي في السبعينات وفي أيامنا هذه، ولا يعني ذلك ان الاقبال على القراءة بالفرنسية قد تناقص كثيرا ، فما زالت هي اللغة الأولى بعد العربية اذ تبلغ نسبة القراءة بها نحو (٣٧ر٣٪) .

وهذا المؤشر هو ايضا مؤشر ايجابي ، فهو يوضح لنا مدى الانفتاح على الثقافة العالمية المكتوبة اصلا باللسان الفرنسي ، أو مترجمة إليه. وسجلت الدراسة ايضا ارتفاعا ضئيلا في حجم الاقبال على الكتاب المغربي رغم ان الكتاب العربي ، والاوروبي ، يتفوقان علية كثيرا . وقد يكون للتوزيع والطباعة والنشر فضلا عن أثمان الكتب اثر في ذلك .(٢)

والملاحظة الاخيرة ملاحظة مهمة بالنسبة لموضوع البحث. فهي تشير الى استمرار النظرة المفعمة بالاحترام والتقدير ازاء ما يرد من نتاج ثقافي من المشرق العربي ، وهذه النظرة تُعَدّ محصلة لتراكم في التاريخ الثقافي ، ولعل في قول المشارقة " تلك بضاعتنا ردّت الينا " ما يشي بمدى التعلق الذى ابداه أهل المغرب والاندلس تجاه ثقافة المشرق في العصر القديم والوسيط. وفي العصر الحديث كانت

---

(١) شاعر وباحث مغربي ، كان رئيسا لتحرير مجلة الثقافة الجديدة أما احمد الرضاوي فهو باحث آخر يعمل معه في المجلة التي توقفت اوائل عام ١٩٨٤

(٢) الكرمل، عدد ١١، ١٩٨٤، القراءة والقراء في المغرب ،ص ص ٢٦٢-٢٧٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

النهضة الثقافية والفكرية المغربية وليدة الاحتكاك المباشر مع الشرق ، وهو أمر فصلنا البحث فيه في الفصل السابق .(١) ومع ذلك ما تزال الفرصة مهيأة للتذكير ببعض المواقف استكمالا للمشهد الثقافي المغربي (٢)

مؤثرات من الشرق

يذكر عبد الله كنون في سياق حديثه عن النهضة الأدبية في المغرب ان المغاربة تعرضوا لمؤثرات أدبية جاءتهم من الشرق ، ولا سيما من آثار علماء المسلمين كمحمد عبده والأفغاني ، والشعراء من أمثال شوقي ، وحافظ، والادباء من امثال جورجي زيدان والمنفلوطي . وعن طريق هؤلاء الكتاب عرف المغرب" اتجاهات الفكر الحديث فيما يتعلق بالفلسفة والأدب" . (٣) والاكثر من هذا أن اطلاع المغاربة على أدب أوروبا كان يتم عن طريق ما تترجمة هذه المدرسة من آداب رغم معرفتهم اللغة الفرنسية ، والاسبانية (٤) وينظر بعض المثقفين من المغرب، من خلال هذا المنظور، الى حركة الاصلاح الديني والاجتماعي ، فيؤكدون أنه لو لم يكن استعمار ولا كانت (الفرنسة) ، فان نهضة الثقافة والتعليم آتية ولا ريب عن طريق الاحتكاك مع الشرق . ولكن الصراع الذى نشأ بين الثقافة الأصيلة والثقافة الغربية الوافدة هو الذى عجل في ظهور المصلحين ولفت انتباه بعض المفكرين كأمير شكيب أرسلان ، الذى قدم الى المغرب عام (١٩٣٠) وأرشد المثقفين المتنافسين في المغرب الى المطالب السياسية والحقوق الوطنية .(٥)

ويقول بعض الكتاب المغاربة ان نشأة الفنون الادبية الجديدة في المغرب كانت نتيجة التاثر بالشرق لا بالغرب . وان هذا الامر ليس بالشيء الطارئ وانما هو مستند الى تقليد ثقافي عريق. فالشعر المغربي عامة يتتبع خطى الشعر في المشرق

---

(١) انظر: الفصل الثاني من هذه الرسالة ، وللاستزادة راجع مقالنا " الادب المغربي في قديمة والحديث" المنشور في مجلة افكار الاردنية ع ٧١ ، ايلول ، ١٩٨٤ ، ص ص ١٢-٢٠

(٢) لقد افاض في بحث هذا الموضوع الدكتور عبد الملك مرتاض، في كتابة: الجدل الثقافي بين المغرب والمشرق : ط١ ، دار الحداثة ، بيروت ، ١٩٨٢

(٣) عبد الله كنون : احاديث في الادب المغربي ،(م م) ص ٤٠ .

(٤) المرجع نفسه ص ٤١

(٥) تحدثنا عن هذه المسالة في الفصل السابق فلا داعي للتكرار ، وانظر عبد الله كنون ، المرجع نفسه ، ص ص ٣٩-٤٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهذا لا ينطبق على الفترة الحالية حسب بل يتجاوز ذلك الى الادب في عصرى المرابطين والموحدين يوم كان الشعراء المغاربة يقلدون شعراء الاندلس . (١)

وقد عرف المغاربة الوانا من الادب الجديد عن طريق المشرق رغم أن الاستعمار جاء بها من طريق آخر، ومثال ذلك أن الاسبان أنشأوا مسرحا في تطوان، وآخر في طنجة، كما أقام الفرنسيون مسرحا في الدار البيضاء، ولكن احتكاك المغاربة بالمسرح ظل عديم التاثير الى أن جاءت فرقة المغنى عزالدين تلميذ جورج ابيض، عام (١٩٢٣)، وعرضت مسرحية صلاح الدين التى كتبها نجيب حداد .(٢)

ويرى غير واحد من الباحثين أن نشأة القصة والرواية ايضا كانت من نتيجة تقليد الأدباء لاهل الشرق وليس من نتيجة النظر الى آداب الغربيين (٣)

وقد طبع التيار (النهضي) - اذا جاز التعبير - في المغرب بالطابع الذى تميز به التيار النهضي للأدب في المشرق، من حيث شيوع روح البحث والتحقيق عوضا عن روح الحفظ والرواية التي كانت سائدة، والاتجاه الى التجديد والابتكار في أساليب التعبير الأدبي ومسايرة روح العصر(٤) مع تطور أساليب التدريس واختلاط العلماء بعامة الشعب، واستخدام مجالس الدرس في بث الروح القومية والفكرة الوطنية، والدعوة للتحرر من قيود الماضي .(٥) وأسفر ذلك عن بعض التجديد في النثر من حيث المضامين والاساليب . فقد أصبح يتطرق الى موضوعات اجتماعية وأدبية وأخرى فلسفية وسياسية .. وظهرت فنون جديدة كالمقالة والخطبة الاجتماعية والسياسية . والقصة القصيرة والرواية والأدب التمثيلي (٦) ولم يعد الاديب يعنى برصف العبارات وتكرار المعنى الواحد بغير صورة من الصور ، بل وجّه عنايته

---

(١) احمد المديني :البحث عن القصيدة المغربية، مجلة اقلام العراقية ع نيسان، ١٩٧٨، ص ١٣٣

(٢) انظر: عباس الجيراري :الادب المغربي، ط١، الرباط، ١٩٧٩، ص ٢٣٩

(٣) انظر: عبد الكريم غلاب، مع الادب والأدباء، دار الكتاب، الرباط، ط١ ١٩٧٤، ص ص ٥٤-٥٩، وانظر عبد الله كنون، المرجع السابق ذكره، في اماكن متفرقة من الكتاب

(٤) عبد الله كنون، المرجع نفسه، ص ٤٢

(٥) المرجع نفسه ص ٤٣

(٦) المرجع نفسه ص ٤٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الى تأدية المعنى ، وبلوغ القصد ، من غير لف ولا دوران ، ومن غير سجع أو اطنـــاب أو استطراد .(١)

نشأة الفن القصصي وتطوره :

هذه الظروف جميعا أحاطت وما تزال تحيط بنشأة الفن القصصي في المغرب ونموه ، وتطوره ، وازدهاره ، ولعلنا لا نخطيء اذا قلنا :ان تطور الفن القصصـــي المغربي يسهم في تكوين الفكرة العميقة الواضحة حول تطور العقلية المغربية فـــي الثقافة والفنون والآداب وتكشف عن العوامل المؤثرة والمكونة لهذه العقلية أو البنيـــة الفكرية .

فمن بين بلدان المغرب العربي كانت تونس السبّاقة الى معرفة هذا اللون من ألوان الادب بحكم قربها من الشرق ، وبسبب ما عرفته هذه البلاد من تفتح مبكر علـــى التعليم العصري ، وما عرفته من نهضة صحفية قبل غيرها من هاتيك البلدان . وكانت القصة منذ البداية تستغل الاساليب التعبيرية في تصوير نضال التونسيّين وآمالهـــم بالحرية والتطور والرفاه الاجتماعي .

أما في المغرب الاقصى فقد بدأ ظهور القصة مع ظهور الفن المسرحي فـــي وسط العشرينات . وكانت احدى الفرق المسرحية في فاس اعتمدت رواية محليـــة بعنوان " اليتيم المهمل والثرى العظيم " لمؤلفها محمد القرّى . كما كتب عبد الخالق الطريس مسرحية " انتصار الحق بالباطل "، وأوحت هذه البدايات لعلال الفاســـي ان يكتب مسرحية شعرية بعنوان " الثلاثة الذين تخلفوا " . (٢)

وفي الثلاثينات استطاعت القصة المغربية ان تخطو خطوة ايجابية من حيث الموضوعات والاشكال والأساليب على الرغم من الكبت الثقافي ، وقمع الحريات، ومنـــع صدور الصحف . ويشير عبد الكريم غلاب ـ في هذا الشأن ـ الى أعمال علال الفاسي

---

(١) المرجع نفسه ص ٥٤

(٢) عبد الكريم غلاب : مع الادب والادباء (م٠م) ص ص ٥٤-٥٩ وانظر بعـــض التفاصيل حول نشأة الفن القصصي المغربي لدى عبد الله كنون ، احاديث فـــي الادب المغربي ، (م٠م) ص ص ١٢٤-١٢٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعبد الخالق الطريس، وأحمد بنّاني ، وقاسم الزهيري ، وعبد الرحمن الفاسي ، وعبد الله ابراهيم . ولكن النتاج يظل في هذه الفترة محدودا بسبب انعدام الصحف ، واحجام الادباء في المغرب عن التخصص في مجال القصة والنظر الى هذا اللون من ألوان الأدب وكأنه ادب غير جاد ، ومع ذلك كان بعض الكتاب يعنون بفنية القصة من حيث المقدمة والعقدة والحل . وفي هذا الطور يبرز كاتبان يكتبان الرواية باللغة الفرنسية . وهما أحمد الصفريوى وادريس الشرايبي ، واتجها معا الى تصوير المجتمع وتقاليده على اختلاف في اللهجة بين حدّة الشرايبي والحياد المطلق لدى الصفريوى . (١)

واعتاد مؤرخو القصة في المغرب على اعتبار الأربعينيات طورا ثانيا من أطوار الفن القصصي ، فقد اشتد ارتباط القاص في هذه السنوات بما جدّ من اوضاع سياسية داخلية في البلاد ، وازدادت الرغبة في اصدار الصحف والمجلات، وهو أمر افضنا في الكلام عليه في الفصل السابق . وامتاز هذا الطور ايضا بظهور عدد غير قليل من الكتاب الذين شقوا طريقهم بصعوبة الى النضج الفني ، منهم عبد الجبار السحيمي ، وعبد القادر السميحي ، ومحمد الصبّاغ، ومحمد برّادة، واحمد عبد السلام البقالي ، ومحمد بيدى ، ومبارك ربيع ، وادريس الخورى ومبارك الدريسي وخناثة بنونة، وابراهيم بو علو .

ويلاحظ على القصص في هذا الطور التزامه لخط السير الوطني النضالي ، ويرى الغلاب، وكنون ، في مجموعة "وادى الدماء" لعبد المجيد بن جلون أول مجموعة قصص تفتح الطريق للأدب النضالي . كما أنّ القمّة في هذا الطور، الذى يمتد الى مرحلة الاستقلال ، عرفت طابعها الشكلي والأسلوبي الخاص . وتخلصت من سيطرة العقدة الشكلية المرتبطة بالحدث وجنحت الى العقدة الدرامية النفسية . كما تخلصت من النهايات المفتعلة واتجهت الى النهايات الطبيعية التي يفرضها نموّ القصة، وما فيها من تصوير صادق للحياة . (٢)

---

(١) عبد الكريم غلاب، المرجع نفسه ص ص ٦٥-٦٧

(٢) عبد الكريم غلاب، المرجع نفسه ص ص ٨٠-٨٢ وانظر: كنون ، احاديث عن الادب المغربي الحديث، (م.م) ص ص ١٢٤- ١٢٥ ، وانظر لمزيد من التفاصيل : د . سيد حامد النساج : بانوراما الرواية العربية الحديثة ط ١ ، بيروت، ١٩٨٢ ، ص ص ٢٠٢- ٢٠٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولعل ابرز ما حققة كتاب القصة في هذا الطور هو تطويع اللغة العربية لأساليب التعبير البسيط، والتخلي عما كان يسودها من الأساليب البلاغية، والزخارف اللفظية، التي كانت تميز اسلوب الكتابة في طورها السابق (١) وهذا لا يعني ان القصة بلغت في هذا الطور حدا بعيدا من التكامل الفني، فقد كان بعضها شبيها بالمقالة الاصلاحية التي يود الكاتب ان يبلغها للقارئ، وخير مثال لهذا الصنف من الروايات " الرحلة المراكشية " لعبد الله بن المؤقت التي صدرت عام (١٩٢٤) . وهي في احيان أخرى ترفيهية لا تهدف الا للتسلية والترويح مثل قصة " فاطمة " لعبد العزيز بن عبد الله، وكانت صدرت عام (١٩٣٤). كما غلب على القصة القصيرة في هذا الطور والطور الذي سبقة الطابع المقامي، وجنحت الرواية أيضا الى الموضوعات التاريخية مثل رواية "غادة أصيلا " للكاتب نفسة . اما الكاتبة آمنة اللوه فقد وضعت رواية تاريخية بعنوان " الملكة خناثة " وتدور احداثها في عهد السلطان العلوي مولاى اسماعيل . وأول قصة جنحت لاعطاء النكهة المحلية هي قصة " مذكرات فقيه " لملكة الفاسي التي صدرت عام (١٩٣٨) . وفي " الطفولة " لعبد المجيد بن جلّون، وكانت صدرت عام (١٩٥٤) مسلسلة في احدى الصحف(٢)

الرواية والصراع الاجتماعي :

وما من شك في أن الرواية المغربية نشأت في أتون الصراع الاجتماعي الذي عرفته مرحلة ما بعد الاستقلال، وهو الصراع الذي اسلفنا الكلام عليه في الفصل السابق والاعمال التي سبقت ذلك لا تعدو أن تكون موضوعات شبيهة بالمقامة حينا، وبالمقالة حينا آخر، ولم تتوفر لأصحابها المواهب القصصية، او المقومات التي تجعل من أعمالهم القصصية أعمالا مؤثرة فيمن جاء بعدهم، أو مؤثرة في ذوق النقاد والدارسين، والجيل الذي ابتكر الرواية في المغرب بعد الاستقلال لم يقلد اصحاب تلك المحاولات، وانما قلّد كتاب الرواية البارعين في المشرق العربي والغرب (٣)

(١) غلاب، المرجع نفسة ص ص ٨٢-٨٣
(٢) انظر: د ابراهيم السولامي، الشعر المغربي في عهد الحماية، من ١٩١٢-١٩٥٦، الدار البيضاء، دار الثقافة، ص ص ٥٩-٦٠
(٣) سيد حامد النساج: بانوراما الرواية العربية الحديثة (م.م) ص ص ٢٠٣-٢٠٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وحقيقة الأمر أن الروايات التي صدرت بعد الاستقلال جاءت كلها في الستينات ولهذا ينظر مؤرخو الأدب المغربي الى هذه الفترة من حيث هي فترة الميلاد للرواية المغربية الناضجة . ويرجع ذلك الى قدرة الرواية في هذا العقد على امتصاص اهتمامات المغاربة التاريخية، ومعالجة المشكلات التي يعاني منها الواقع الاجتماعي والثقافي المغربي . وظلت الرواية في هذا الطور تمثل الدليل على انخراط الأديب في الصراع الذي انخرط فيه المجتمع بعد الاستقلال . (١)

ولكن هذا لا ينفي صدور روايات في الستينات تفتقر الى شروط الفن الروائي الناضج وقواعده . ومن هذه الروايات ما يسقط في الحرفية التاريخية الساذجة، أو السيرة المسطحة للأشخاص ، مع التقنية الهشة والسرد المضطرب، وتغيّب الرؤية الواضحة للكاتب، كرواية " مخاض" للسباعي ، "وبوتقة الحياة " للكاتب نفسه ، " وغداً تتبدل الارض" لفاطمة الراوي (٢). . الخ .

النشاط الابداعي في الرواية :

وترشدنا النظرة الى (ببليوغرافيا) (٣) الرواية في المغرب لمزيد من العناوين والأسماء، فبعد صدور رواية عبد المجيد بن جلون " في الطفولة " عام (١٩٥٧) ، وكانت نشرت من قبل مسلسلة في احدى الصحف، لم يلبث ان أصدر عبد الله العروي روايته الاولى (غربة) التي عبرت عن رؤية صاحبها المعجب بالغرب . أما عبد الكريم غلاب فأصدر سنة (١٩٦٦) روايته الكبيرة " دفنا الماضي " (٤) واتبعها برواية في مثل حجمها " المعلم علي " التي صدرت عام (١٩٧١) . ثم رواية" سبعة أبواب " وهي سيرة ذاتية للمؤلف . وقد عبر الغلاب من خلال هذه الاعمال عن تحمسه لهذا الفن الروائي الجاد حماسة لا تقل عن تحمّسه للقصة القصيرة أو المقالة الصحفية والسياسية . ويصدر البكري احمد السباعي روايتين هما :بوتقة الحياة، ومخاض ،

---

(١) راجع الفصل السابق من هذه الدراسة

(٢) انظر: ادريس الناقوري : المصطلح المشترك ط٣ ، الدار المغربية للنشر ، الدار البيضاء، ١٩٧٧ ، ص ص (٢١-٢٤)

(٣) لا توجد ببليوغرافيا فعلا للرواية وانما قصدت قائمة العناوين التي اشرت اليها في جريدة المصادر والمراجع .

(٤) الغلاب، دفنا الماضي ، ط٤ ، دار الثقافة، الدار البيضاء، د.ت

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكلتاهما تقع في أغلاط فنية، وسذاجة في السرد، تبعد بهما عن عالم الرواية الحقيقي كما ذكرنا قبلا .

ثم تصدر لمبارك ربيع روايتان هما : الطيبون والريح الشتوية[١] والاخيرة في جزئين . ثم يتبعهما عام (١٩٨١) برواية ثالثة هي " رفقة السلاح " .[٢]

ومن جانب آخر يسهم محمد زفزاف بأعمال روائية عديدة منها ما نشر في المغرب ومنها ما نشر في الخارج ، ونذكر منها في هذا الموضع " أرصفة وجدران " و " المرأة والوردة " و " الافعى والبحر " و " محاولة عيش "[٣] أما الحبابي محمد عزيز فيصدر عام (١٩٦٦) روايته " جيل الظمأ "[٤] التي تتناول جانبا من حياة ابن الطبقة المثقفة وسعيه للتكيف مع الواقع المحلي ، ويثور احمد المديني علي الاشكال التقليدية في السرد والتعبير من خلال روايته " زمن بين الولادة والحلم "[٥] ولكن ثورته هذه لا تجد الا النقد القاسي . ويصدر عبد الله العروي روايته الثانية " المتيم " ، ليواصل اشكاليته السابقة حول العلاقة بالغرب، في حين ان عددا من كتاب القصة القصيرة يجتازون البرزخ الفاصل بين النوعين الادبيين فيصدرون روايات منهم : محمد التازى ، الذى يصدر رواية اخرى بعنوان " أبراج المدينة "[٦] فتستقبلها أقلام النقاد بقسوة، ثم يصدر رواية اخرى بعنوان " رحيل البحر "[٧] كما يصدر الميلودى شغموم روايته " الابلة والمنسية وياسمين "[٨] واحمد عبد السلام البقالي رواية " سابكي يوم ترجمين "[٩] ومحمد شكرى رواية " الخبز الحافي "[١٠] وهي سيرة ذاتية في قالب روائي ، كما تصدر

---

(١) صدرت عن موسسة الوحدة للنشر والتوزيع، تونس، ١٩٧٨
(٢) ظفرت بالجائزة الاولى لمجمع اللغة العربية في القاهرة عام ١٩٧٥، وصدرت في الدار البيضاء عن دار النشر المغربية سنة ١٩٧٦
(٣) نشرت الرواية الاولى في دمشق، والثانية في تونس، والثالثة في الرباط، والاخيرة في مجلة اقلام العراقية .
(٤) دار النشر العربية، البيضاء، ١٩٧٦
(٥) انظر الطبعة الاخيرة، مطبعة النجاح الجديدة بالدار البيضاء، ١٩٨٢
(٦) محمد عز الدين التازى، ابراج المدينة، وزارة الثقافة والاعلام، بغداد ١٩٧٨
(٧) محمد عز الدين التازى : رحيل البحر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٣،
(٨) صدرت عن المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، ١٩٨٢
(٩) صدرت عن دار الميثاق، المغرب، (د.ت) .
(١٠) انظر الطبعة الثانية من الرواية، طنجة، المغرب، ١٩٨٢ (د . ط) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

خناثة بنّونة روايتها " الغد والغضب " (١) ومحمد الحساني روايته " المغتربون " (٢) الى غيرها من أعمال تتفاوت من حيث المستوى، وحداثة التجربة . (٣)

الدراسة السّوسيو تاريخية :

ولما كانت دراستنا للرواية المغربية ليست دراسة تاريخية أدبية شاملة، وانما هي دراسة سوسيو تاريخية، تنحصر في تسليط الضوء علي الرؤية القصصية التي تنكشف عنها الأعمال الروائية من حيث هي عناصر لبناء شمولي ، ممتزج الابعاض، تلك الرؤية التي تفصح عن وعي القصاصين بواقعهم وتكوينهم لهذا الواقع، فاننا سنعمد الى استثناء الاعمال التي لا تمت بصلة الى شروط البناء الروائي الدقيق المحكم الصنعة . وسنختار بعض الروايات التي أقترح أن اطلق عليها خلال الفصول التالية مصطلحا قديما هو " المتن الروائي " واعني به مجوعة الروايات التي ستكون موضع اهتمامي ودراستي وتحليلي . وسأتعامل مع هذا المتن من حيث هو مجموعة من النصوص تتفاعل فيما بينها لتكوين بنية قصصية واحدة علي الرغم من ان هذه الوحدة لا تنفي ما بين الروايات من فوارق .... في المعنى أو المبنى .

---

(١) صدرت عن دار النشر المغربية، الدار البيضاء، (د.ت)
(٢) دار النشر المغربية، البيضاء، (د.ت)
(٣) انظر الشكل الفني في الرواية المغربية، الموقف الادبي، عدد ١٠٤-١٠٥، كانون أول، وكانون ثاني ١٩٧٨ / ١٩٧٩ ص ٤٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

" الفصـــــل الرابـــــــــع "

رؤيـــــة الواقـــــع المغربي علـــى المستوى التاريخـــي

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رواية دفنا الماضي لغلاب والرؤية السلفية :

" دفنا الماضي "[١] هي الرواية الاولى التي حاولت أن تسجل أحداث التاريخ المعاصر برؤية فنية ذات مضمون ايديولوجي معين . فالمؤلف الذى ينحدر من اسرة فاسية عريقة استوعب الاحداث من خلال معايشته الشخصية لها ، ومن خلال المعطيات التى انتقلت اليه عن طريق قيادة الحزب الذى انخرط فيه ، وهو حزب الاستقلال ، وارتقى الى أن اصبح محرر صحيفته ، وهي جريدة " العلم " .

وتبدأ القصة باختيار أسرة فاسية هي أسرة الحاج محمد التهامي الذى ينحدر من أصلاب الاقطاعيين ، الذين امتلكوا قصورا على الطراز الاندلسي الزخرفي ، واستملكوا الاراضي من الفقراء وصغار الفلاحين مقابل ديون عجزوا عن سدادها ، حتى اصبحت لهم المزارع الشاسعة ، وتحول الفلاحون في تلك الضيع والقرى الى " أقنان " . وتعيش هذه الاسرة في حي معروف من مدينة فاس ، وهو حي (المخفية) الذى تتجاور فيه عائلات ذات طابع ارستقراطي عتيق .

وتمضي الحياة في القصة برتابة لا تتخللها الا مشاهد عابرة ، الغرض منها تعميق وعينا بخصوصية البيئة التي تقع فيها الاحداث . من ذلك مشهد اختطاف الجواري من الجنوب ، وبيعهن في دار النخاس ابن كيران ، ومشهد الحاج التهامي الذى خرج عن نمطه الاخلاقي المحافظ ، وتسرّى بخادمته " ياسمين " في أثناء غياب زوجته " خدوج " ، ومشاهد فولكلورية عابرة حول زيارة احدى فرق الرقص الشعبي (كناوة) القادمة من البوادى والارياف لمدينة فاس . وما يرافق هذه الحفلات من حفاوة وافراح تشغل المدينة بعامة ، واهل البيت (أو القصر) بوجه خاص . وتنجب ياسمين الخادمة مولودا ذكرا يسميه الحاج التهامي (محمودا) في حين يسميه أفراد العائلة من

---

(١) عبد الكريم غلاب : " دفنا الماضي " ، ط٤ ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، (د.ت) ، وكانت الطبعة الاولى قد صدرت في بيروت ، دار الاداب ١٩٦٦ . اما الكاتب فقد ولد بفاس سنة ١٩١٧ ، ودرس في القاهرة ، وشغل مناصب عديدة منها وزير الدولة ، ومدير جريدة العلم (لسان حال حزب الاستقلال) ولة مولفات فكرية وادبية كثيرة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الابناء (عبد الغني ، وعبد الرحمن ، وعبد اللطيف ، وعائشة) الاكحل ، نسبة الى سمرة في لونه ، وولد الخادم نسبة الى أمه الخادمة ياسمين .

ويكسر هذا النمط من السرد رحيل الحاج التهامي بعائلته جميعها الى الريف بقصد النزهة ، والنظر في الاراضي ، وتفقد أحوال المزارعين المسخّرين مقابل ما يظفرون به من قوت لهم وللعيال . وثمة ما يشير الى أن الحاج التهامي ، رغم اشتغاله بالتجارة ، ورغم حرصة الشديد الذى يصل حد البخل ، الا أنه اقطاعي عريق ، يتجول في أملاكة وكأنه " ملك من ملوك الغرس أو الروم ، تحيط به حاشية من الخدم والفلاحين " . (١)

وهنا تبرز عناصر جديدة تشير الى نمط العلاقة بين هذه الاسرة والفلاحين (٢) . وفقدان الثقة بين الفريقين ، ومشاعر العداء الخفية التى يكنها كل طرف للآخر . واستمرار النمط الاجتماعي الذى اصطبغ به الحاج التهامي في شخصية ولده الاكبر عبد الغني . الذى يعتنق المبادىء ذاتها ، ويزاول حياته كما لو كان نسخة مطابقة للأصل عن أبيه . (٣)

في هذه الاثناء يشير الكاتب الى عنصر جديد وهو الاستعمار ، تحت كلمة " النصراني " الذى يتهدد الاقطاعيين بالاستيلاء على الارض . هذه الاشارة ترد على لسان قدّور . . . وهو من الفلاحين الذين فقدوا أملاكهم بانتقالها للحاج التهامي (٤) وكانت الاشارة الاولى التى سبقت هذه الاشارة للمستعمر في أثناء الحديث عن المدرسة العصرية التى ذهب اليها عبد القادر الرحموني ، ومقارنته اياها بالكتاب (المسيد) وتأثر عبد الرحمن الابن الثاني للحاج التهامي بهذا الحديث مع عبد القادر ، الذى روى قصصا طريفة حول المدرسة استخدم خلالها الفاظا جديدة كالاستاذ ، والقسم ، والسبورة . (٥)

---

(١) عبد الكريم غلاب ، دفنا الماضي ص ٩٩
(٢) المصدر السابق نفسة : ص ص ١٠٧-١٠٩
(٣) عبد الكريم غلاب : دفنا الماضي ص ١١٠
(٤) المصدر السابق نفسة : ص ١١٨
(٥) المصدر نفسة ص ص ٩٢-٩٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثم يعود الى هذه الاشارة مرة أخرى ، فيقارن المدرسة العصرية بالكتاب.(١)
ثم يغلو في ذلك ويشتط الى ان يقارن فقيه الكتاب(أو المسيد) ، واسمه اليازغي بالمعلم الفرنسي (فرانسوا) ، ثم يتساءل في شيء من الحيرة : أي نموذج سأكون ؟ هل سأكون اليازغي أم سأكون فرانسوا ؟ (٢)

في حين أن عبد الغني (أخاه) لا تعنيه كل هذه الأمور، ولا تهمه في شيء، وقصارى ما يشغله هو المال والتجارة، فهو النموذج المصغر للحاج محمد(٣)

حين ينجح عبد الرحمن في اقناع أبيه بالانصراف عن الكتّاب، والالتحاق بمدرسة ابناء الاعيان ، وهي المدرسة العصرية، فإن تحولا جديدا يطرأ على الأحداث وعلى شخصية عبد الرحمن أيضا . فقد نشأ صراع بين أفراد العائلة : الأب ونموذجه المستمر في عبد الغني ، وعبد الرحمن ونموذجه المتجدد في عبد اللطيف(الخجول) ومحمود بن الخادمة وعائشة التي ترغب في أن تدخل مدرسة أبناء الأعيان رغم ان الفتاة لم تكن حتى ذلك الحين تعرف المدرسة.(٤)

وأمام هذا الوضع الجديد يتمترس عبد الغني خلف متراس الدين ، زاعما أن ما تأتي به المدرسة الجديدة لا يختلف عن كونه ضربا من الكفر .

الخلل التاريخي :

لقد اختزل المؤلف عبد الكريم غلاب في الصفحات من (١٠٤-١٤٠) مرحلة طويلة دون أن يقف عند تفاصيلها الدقيقة، أو خطوطها العريضة البارزة، فنحن مثلا لم نسمع بوقوع الحماية، ولا بأحداث فاس، ولا بأحداث مراكش وجبال أطلس الاوسط . . . وثورة الريف. . . . وكأن القاص القى على حي (المخفية) بخاصة، ومدينة فاس بعامة،

(١) المصدر نفسه ص ص ١١٩-١٢٦
(٢) المصدر نفسه ص ١٣٢
(٣) المصدر نفسه ص ١٣٤
(٤) المصدر نفسه: ص ١٣٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ستارا من العزلة، اذ إنّ كل ما يجري وما يقع من حوادث لاصلة له بما يقع في المغرب . وهذا خلل تاريخي ما كان المرء ليحاسب الكاتب عليه لولا أنه فاجأنا في الصفحات التالية بما هو معروف باسم " الظهير البربري" الذى اسلفنا الكلام عليه عند الحديث عن الحركات السياسية في المغرب(١) فهل كان الحاج التهامي وحده الذى فوجيء بدرس الشيخ عبد الغفور في ضريح مولاى ادريس(٢) أم أن المفاجأة تلف النص كما تلف القارىء؟ وعلى هذا النحو من التهويل بشأن المفاجأة راح الكاتب يعلي من شأن الخبر وخطورته على البلاد . وحشد لنفسه من العناصر ما يجعلها قادرة على تحريك الأحداث في اتجاه مساير لاتجاهه في كتابة التاريخ بواسطة القصص .

فهي رؤية للأحداث تنطلق أولا من المسجد (جامع القرويين) حيث النخبة من المصلين والعلماء والفقهاء يقومون بتلاوة دعاء " اللطيف " الذى يرمز لخطورة الموقف من جهة، وشدة النزوع الى الله بعد أن تقرر عجز العباد عن القيام بأى شيء في مواجهة الظهير من جهة أخرى(٣)

ولم يتجاوز الحاج التهامي برزخ الحيرة، وعدم التصديق، حتى سمع للمرة الاولى كلمة الإمام : " الاسلام في خطر"(٤) ومع ذلك فهو لم يخط خطوة واحدة باتجاه المسجد للمشاركة في دعاء " اللطيف" الا بعد أن حثه ابنه عبد الرحمن، على الرغم من عدم ايمانه بأى شيء يقوله هذا الابن الذى أفسده التعليم العصرى(٥) ولا يفهم أى معنى للألفاظ التى يستخدمها كألفاظ" الامة، والوحدة، والوطن، والدخلاء، والغزاة ..."(٦)

ويبدو القاص في هذا الطور من روايته موزعا بين جيلين متناقضين أشد ما يكون التناقض، وهما : جيل التهامي ، وجيل عبد الرحمن ، ويتفاقم الصراع بين الجيلين حين يشرع عبد الرحمن في الحديث عن مقاومة المحتلين ، وطلب الحرية والكرامة(٧).

(١) عبد الكريم غلاب: دفنا الماضي (م ٠ م) ص ١٤٠
(٢) المصدر نفسه : ص ١٤١
(٣) المصدر نفسه : ص ١٤٢
(٤) المصدر نفسه : ص ١٤٤
(٥) المصدر نفسه : ص ١٤٥
(٦) المصدر نفسه : ص ١٤٦
(٧) المصدر نفسه : ص ١٥٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويتغلب على معارضة أخيه عبد الغني وأبيه فيلتحق محمود (ابن الخادمة) بالمدرسة العصرية[١] وعلى هذا النحو يتعمق الخلاف بين الاتجاهين : فعبد الغني يزداد رسوخا في عالم الاقتصاد والتجارة في حين أن عبد الرحمن يتوغل في الحديث عن السياسة والانتفاع بالعلم الغربي[٢]

صراع بين تيارين :

وتظل الاسرة موضع صراع بين هذين التيارين ، ويتجلى الموقف واضحا في مناسبتين : احداهما زواج عبد الغني من ابنة التازى على الطريقة التقليدية المتبعة منذ أجيال ، وخطوبة عائشة ابنة الحاج التهامي التى تتجرأ فيكون لها رأى في هذا الموضوع، وتفضل الشاب المتعلم على غيره رغم غناه . وفيما يمضي الزواج الاول طبقا لمبدأ الربح والخسارة، بعيدا عن المسائل الضرورية الاخرى ، تتكلل محاولة عبد الرحمن بالنجاح الذى يسفر عن زوجية سعيدة لعائشة ،ومن علاقة عاطفية خجولة بالاجنبية (مادلين) .

هذه الظواهر العابرة ترسم خطا موازيا للصراع على المستوى الشعبي ، وعلى مستوى الحياة اليومية، والتحول الذى تشهده الطبقة الاجتماعية .

ويزداد التباعد بين الفئتين عندما يدخل عبد الرحمن السجن[٣] فقد أعقب خروجه منه فتور واضح في سلطة الأب على الاسرة، بعد أن اصبح الجميع باستثناء عبد الغني (النسخة المطابقة للأب) يأتمرون بأمر عبد الرحمن[٤] وفي هذه الاجواء المحمومة بالصراع الداخلي ، الممتلئة بالتحول الاجتماعي ، القسرى ، الذى ينبع من الظروف الموضوعية، ومن تراكم الاحداث، في هذه الاجواء تبدأ الحرب العالمية الثانية[٥]

(١) المصدر نفسه : ص ١٥٧
(٢) انظر : دفنا الماضي ص ص ١٦٤-١٦٧
(٣) عبد الكريم غلاب : دفنا الماضي ص ٢٢٧
(٤) المصدر نفسه : ٢٣٥
(٥) المصدر نفسه : ص ٢٤١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والحق أن الكاتب لم يقف طويلا عند ماجريات هذه الحرب، وحسبنه انه مر عليها في فصل واحد أشار فيه الى وعودفرنسا للمغرب، تلك الوعود التي لم تنفذ فرنسا واحدا منها بعد الحرب .

ويترك محمود الدراسة في أعلى المراحل ليطلب وظيفة في الحكومة، والسبب هو فراره من البيت الذى يعيش فيه ، ويعامل معاملة ابن الخادم، والولد غير الشرعي، ويطمع في الوظيفة لأنه من أبناء الأعيان ، وفي اعتقاد عبد الرحمن أن الإنجليز " خرافة اخترعتها الحماية لخلق طبقة متميزة "(١) والمستعمر هو الذى صنف المجتمع في طبقات عديدة منها : الأعيان والحرفيون والصّناع. وبعد أن يضيق محمود بهذه الفلسفة يعلن عزمه على ترك الدراسة، والعمل موظفا ، ثم يتساءل عبد الرحمن :هل يفعل ذلك لأن أمّه أمَةٌ، ولهذا لا بد أن يلتصق بالتراب ؟ (٢) ويصرخ محمود :لقد اخترت الاّ أكون عبداً للفقر .(٣)

بهذه العباره حسم محمود موقفه ، وتبعا لذلك اصبح واحدا من فئة المتعلمين والموظفين الذين تبعوا أهواءهم على حساب الوطن ، وبعد أن كان الصراع يحتدم بين تيارين احدهما يمثل العقلية القديمة المنهارة (الطبقة الاقطاعية بقيمها التقليدية) وثانيهما : العقلية الجديدة الرافضة للقديمة المنطلقة للمستقبل والانتفاع بالعلم الغربي لتحسين اوضاعها الاجتماعية على صعيد الوطن .

واصبح لدينا تيار ثالث يمثله محمود ، وهو الفئة البورجوازية المتذبذبة التي تتخير المواقف وفق مصالحها الشخصية رغم ان هذه المصالح قد تتناقض مع مصلحة المجتمع أو الطبقة الاجتماعية، ويؤدى ظهور هذا الفريق الثالث الى اشتداد الصراع وامتلاء الرواية بالاحداث . ويبدو أن محمودا تطوع لانجاز ما لم ينجزه عبد الرحمن ، فقد كان الحاج التهامي أرسل ولده عبد الرحمن للمدرسة ليكون واحدا من رجال الحكومة (المخزن)(٤) ، ولم يكن يتوقع التغيير الذى سيطرأ عليه .

(١) المصدر نفسه ص ٢٧٩
(٢) المصدر نفسه ص ٢٨٢
(٣) المصدر نفسه ص ٢٨٣
(٤) المصدر نفسه ص ٢١٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مع تصاعد الاضطرابات يدخل عبد الرحمن السجن مرة أخرى، ويواجه المحاكمة، ويصدر عليه حكم بالحبس لمدة سنتين، وبعد الخروج الثاني من السجن يظهر على مسرح الأحداث عامل جديد، وهو المرض الذى يصيب الحاج التهامي.(١)

ويحاول عبد الكريم غلاب استغلال هذا الجزء من الحدث للتعبير عن انهيار الجيل المحافظ، وانسحابه من المواجهة التى فرضتها الحوادث الجديدة، واصرار (خَدّوج) على عدم استدعاء الطبيب، والاعتماد على الخالق الشافي محاولة أخرى للمقارنة بين عقليتين، احداهما تعشش فيها الخرافة والثانية تؤمن بالعلم الحديث. " أرجوك يا عبد الرحمن أن تتركني وتتركه ... الله وحده سيشفيه ولو عرف ما تعتزمه من استدعاء طبيب لمنعك من ذلك ". (٢)

ويلج الكاتب أعماق عبد الرحمن في عملية بحث عن الذات والهدف، بحيث يهمس لنفسه قائلا " مهمّتي أن احوّل التاريخ "(٣) ومهمتي ان أقف في وجه تيار يزحف من الماضي (٤) و" لا تحرق ذاتك في بعث الماضي ".(٥)

ويبدو الحاضر - في ذهن الكاتب - صورة مشوشة مضطربة، فهل هو حاضر عبد الرحمن الذى اندرج في التيار الوطني، عاملا من أجل الاستقلال، أم هو حاضر محمود الذى اندرج في سلك القضاء الذى يشارك في قمع الوطنيين، وزجهم في السجون، والحوار الذى يدور بين الشخصيّتين لا يفصح الا عن هذا الاضطراب، في حين أن عبد الغني يواصل حياته الرتيبة متّخذا الشعار: ليس في الامكان أبدع ممّا كان. (٦)

وتتلاحق الاحداث كاشفة عن شخصيات جديدة تظهر للمرة الاولى، مثل شخصية عبد العزيز، وتعتقل قيادة الحزب، وتأسر وتنفى، وينجرف في التيار الاستسلامي كبار النخبة في المجتمع الفاسي، " موظفون.. فقهاء.. محامون.

(١) المصدر نفسه ص ٣١٢
(٢) عبد الكريم غلاب : دفنا الماضي ص ص ٣١٤-٣١٥
(٣) المصدر نفسه : ص ٣١٥
(٤) المصدر نفسه : ص ٣١٥
(٥) المصدر نفسه : ص ٣١٦
(٦) المصدر نفسه : ص ص ٣٢٣-٣٢٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

طأطأوا الرأس وقبلوا الايدى ." ويقول عبد العزيز " خيانة النخبة تفتّت في عضد الشعب"(١) فيرد عبد الرحمن " لم تكن النخبة في يوم من الايام مقياس الوعي "(٢) ويقول : " اين هو الشعب ان لم يشعر بعدُ بتحول التاريخ ؟ "(٣) . وينقضّ أحد الفدائيين من الدار البيضاء على السلطان الوهمي الذى نصبّه المستعمرون ، ويقتله ، وبسرعة ينتقل الحديث بين عبد العزيز وعبد الرحمن الى حكاية السلطان الدمية ، والفدائي البطل - علال بن عبد الله - هذا التعجّل في الاشارة الى الاضطرابات التى وقعت في المغرب ، وانتهت بنفي محمد الخامس ، وتعيين حاكم بديل له ، مع اعتقال قادة الحزب ، كل ذلك جاء مقحما على الرواية وهي تسير باتجاه الحدث الختامي .. اضطرابات الدار البيضاء ، وحديث الحاج التهامي : " اللهم حوالينا ولا علينا "(٤).

لكن المؤلف لم يسلّم بمعقولية هذه الأمنية ، اذ ما لبث ان اقترب بالحوادث من مدينة فاس ، اسوة بغيرها من المدن كالرباط ، والدار البيضاء ، ووادى زم ، ويضطر الكاتب الى ذكر احياء جديدة مثل حي الطالعة(٥) ، وحي العدوة (٦) وتظهر شخصيه جديدة هي شخصية (علي) أحد أفراد الخلية التى ينتسب اليها عبد الرحمن . (٧)

وشخصية جديدة أخرى هي شخصية عبد الرؤوف ، وشخصية سالم بن محمد ، وجميعهم يمثلون أمام المحكمة بتهمة القيام بالاضطرابات ، ويحكمون بالاعدام فيما يكون الحُكمُ بالحبس من نصيب عبد الرحمن ، وفيما يكون الحاج على فراش المرض يصله النبأ عن طريق شخصية جديدة هي شخصية (مولاى الزّكي) ثم بواسطة ابنه محمود الذى يتحدث عن الفدائيين فيصفهم بانهم ارهابيون ، ومغامرون ، يلقون بانفسهم الى التهلكة . وان القانون هو القانون ، ويجب أن يخضع له الجميع . (٨) ويبدو لنا أن محمودا شارك في اصدار الحكم على المتّهمين ، وفي اعداد التحريات اللازمة لاصدار الادانة المستحقة للعقوبة القصوى .

(١) عبد الكريم غلاب: دفنا الماضي (م.م) ص ٣٤١
(٢) المصدر نفسه : ص ٣٤٢
(٣) المصدر نفسة : ص ٣٤٣
(٤) المصدر نفسه : ص ٣٤٥
(٥) المصدر نفسه : ص ٣٦١
(٦) المصدر نفسه : ص ٣٦٢
(٧) المصدر نفسه : ص ٣٦٤
(٨) المصدر نفسة : ص ص ٣٨١-٣٨٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبعد جلسة في المحكمة يختمها محمود باصدار حكم بالاعدام، والمؤبد والاشغال الشاقة، تأخذه نوبة من عذاب الضمير، فتخيم أمامه الرؤى، ويصطدم بسيارته مضفيا على حياته ذات الخاتمة الخيانية نهاية مأساوية مفجعة .

موت محمود ونقاء النخبة :

والحق أن الكاتب سكب شخصية محمود في القالب الذى اراده، فلم يكتف بأن جعله ولد الخادم، والأكحل، بل جعله يرتكب الخيانة وكأنها شرف، أو تعويض عما كابده في بيئته الارستقراطية التي تحتقر الخدم والعبيد، بل لم يكتف بذلك كله بل جعله يلقى هذه النهاية التراجيدية المفاجئة دون تمهيد يذكر، أو مسوّغ مقنع . فهل اراد من ذلك ان يقول : ان نهاية محمود نهاية للخيانة؟ . وأن طريق الشعب اضحت سالكة لا تعترضها العوائق ؟ وهل أراد أن يستكمل ذلك بتغييب الحجاج التهامي عن مسرح الاحداث ايضا ؟ . " نشرت المأساه ظلالها على القصر الذى عرف الازدهار سنوات طويلة حتى ليخيل اليك - وأنت تدخل القصر - أن فترة من الحياة تكاد تودّع، وان القصر يجتاز دور شيخوخة تكاد تتكشف عن نهاية " . (١)

وفي ظل هذه المأساه يخرج عبد الرحمن من السجن، وتطرق مسامعه الاحداث العاصفة، في بُقَع أخرى من الوطن، أكنول، و " وادى زم " وفي هذا الجزء من النص تظهر شخصية جديدة لا نعرف عنها شيئا، وهي شخصية " عبد الله " وعبد لله هذا لديه الاخبار كلها عن الثورة في بقية المناطق . (٢)

وفي الفصل الختامي يطلق المؤلف زغاريد الاستقلال، فيما يكون عبد الرحمن واخوته يدفنون جثمان الفقيد الحاج التهامي لينفض عبد الرحمن يديه من التراب، والمرحلة في وقت واحد، وهو يستعيد ما ذكره عبد العزيز قبل اعدامه : " لا . لم ندفن الماضي بعد . . . . " (٣)

(١) عبد الكريم غلاب: دفنا الماضي، (م.م.ا) ص ٣٩٤
(٢) المصدر نفسه : ص ص ٣٩٨-٣٩٩
(٣) المصدر نفسه ، ص ٤٠٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

منظور الكاتب الايديولوجي :

يتضح مما سبق عن الرواية أن الكاتب ينظر الى واقع الحياة الاجتماعية، والى سيرورة التاريخ المغربي، من منظور خاص، فهو سلفي - قياسا الى الماضي - فقد ظل يؤمن بضرورة انطلاق الثورة من الجامع (القرويين) واستقلالي في حرصه على جعل الكفاح والنضال والحرية ثمرة لكفاح حزب الاستقلال وحده، دون غيره - وانه ناضل وكافح واعتقلت قيادته ونفيت وشردت .وهو (نخبوي) فقد حصر النضال في يد النخبة المتعلمة، المثقفة، المنحدرة من أصل عريق ومحتد طيّب، مثل عائلة التهامي ... في حين أن اي مساس بنقاء هذه النخبة - كما هو الحال بالنسبة لمحمود - فان النتيجة مختلفة تماما، فهو خائن لان أمّه ليست من حسب رفيع، ولا من نسب باذخ، وهو - من أجل ذلك - يحن الى أصله من حيث أنه عبد، وابن أمة اسمها ياسمين، ولهذا فان نهايته - وان لم تكن مسوغة فنيا - فهي ترمي لتنقية اجواء النخبة الثائرة .

وتوزيع الطبقات الاجتماعية في الرواية توزيع مستمد من هذا المنظور . فالحاج التهامي الذى يحيا حياة البورجوازيين المتوسطين ذو ماض عريق، وحاضر اقطاعي مائل في استغلاله للفلاحين وصغار الملاكين، وتحويله الى أقنان، وهذه الطبقة لم تعد في نظر الكاتب قادرة على الاستمرار في أداء دورها، فالعالم من حولها يقوم وهي قاعدة . لهذا خرجت من صلبها طبقة جديدة " عبد الرحمن " وهي البورجوازية الصغيرة الصاعدة التى تطمح في الوصول الى القمة عبر وسائل تختلف عن وسائل الطبقة المنهارة . والبورجوازية المتمثلة في عبد الغني الذى يحافظ على سيرة السلف في كل شيء، والبورجوازية الصغيرة التي تراهن على مصالحها الفردية، رغم انها تتفق مع مصالح العدو الغاصب(محمود) ، ولكن هذه الشريحة من البورجوازية، في نظر الكاتب، لا مستقبل لها، ومن اجل ذلك جاءت نهاية محمود المأسوية لتاكيد هذا المبدأ .

ويكمن الخلل الاجتماعي في هذه الرواية من حيث انها تقتصر على المجتمع

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(المديني) وشرائحه المفككة أو المتلاحمة . ولم نجد في منظور الكاتب شيئا يعني المجتمع البدوي أو الفلاحي الذي كان - وما يزال - يشكّل الاغلبية العظمى من أهل المغرب . بل ظل يشكّل العصب الاساسي للثورة على المستعمر . ومن الجائز أن يكون تقيد الكاتب بمنظوره المكاني (فاس) دون غيرها من المدن هو المسؤول عن تغييب القسم الأعظم من المجتمع والطبقات الاجتماعية .

وحتى في منظوره المكاني (فاس) ثمة ما يوجب أن نراه وهو الطبقة العاملة الصاعدة التي بدأ ظهورها بظهور المستعمر وظهور الطبقة البورجوازية الصغيرة . . . فأين الكاتب من هذه الشرائح البشرية التي تدفقت من البوادي والارياف على المدينة بحثا عن العمل في المعامل الصغيرة والصناعات التحويلية الخفيفة؟. هذا الخلل الاجتماعي تجنبه كاتب آخر تناول الفترة ذاتها من منظور اجتماعي أكثر شمولا ، وأقرب الى الرؤية التي تسود الفئات الاجتماعية الاخرى ، واكثر التحاما بالبنية الفكرية والذهنية المغربية المعاصرة، وهو مبارك ربيع في روايته " الريح الشتوية " . (١)

الريح الشتوية لمبارك ربيع :

والفارق بين الكاتبين هو الذي يحدّد لنا الجواب على السؤال : كيف تؤثر رؤية الكاتب للعالم - التي هي مزيج خاص من وعيه الفردي الأقصى ووعي الجماعة التي ينتسب اليها ، حزباً كانت أم فئة أم طبقة اجتماعية - في مجريات الأحداث وطبائع الاشخاص ومصائر الابطال في الرواية ؟ .

فالكاتب - الاول - كما سبق أن ذكرنا - كاتب فاسي ، ينحدر من اسرة عريقة المحتد ، باذخة الثراء . وهو استقلالي نسبة الى الحزب الذي انخرط فيه وارتقى الى أن اصبح من منظّريه السياسيين ، ومن كبراء الاعلاميين . في حين ان صاحب " الريح الشتوية" كاتب دكّالي ، ينتسب الى احدى القرى (بوزنيقة) الواقعة في سهل دكالة بين الدار البيضاء والرباط،وهو على ذلك من ابناء الفلاحين ، وقد كافح من اجل مواصلة تعليمه الى أن اصبح مدرسا في قسم الفلسفة بكلية الاداب والعلوم

(١) مبارك ربيع، الريح الشتوية: ط١، تونس، الدار التونسية للنشر، ١٩٧٨.
اما الكاتب فهو من مواليد بوزنيقة قرب الدار البيضاء سنة ١٩٣٥ وحصل على دبلوم الدراسات العليا في الفلسفة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الانسانية في الرباط (١) وهذه المعلومات ليست هامشية فهي ترشدنا الى نقطة الخلاف في المنطلق الذى ينظر كل واحد منهما عبره الى الحياة والى الكون .

في " الريح الشتوية " نبدأ من الارض. ومن الفلاحين الذين تم الاستيلاء على أراضيهم الزراعية بوسائل الضغط والمصادرة والتلاعب وتزوير الوثائق الثبوتية ومستندات التمليك . يفعل ذلك المستعمر مستعينا بالركائز المألوفة الباشا والمقدم والشيخ الخ . وعلى هذا النحو يجد العربي الحمدوني نفسه بين عشية وضحاها بلا أرض . وفي ظل هذه الظروف يطيع الحمدوني الرأى الناصح له ليغادر قريته تحت جنح الليل متوجها الى المدينة ليكسب عيشه أولا ، ثم ليتابع من هناك قضية الارض بين المحاكم والمحامين (٢)

فالقضية اذن هي قضية صراع على الأرض، وهي قضية البحث عن عمل لكسب القوت اليومي ، وهي مغالبة وجلاد ضد التغيير الزاحف في الهياكل الاجتماعية القائمة .

فالمستعمرون يريدون تفريغ الريف من الفلاحين ، وتحويلهم الى ايد عاملة في المدن لتحقيق الهدف المزدوج : الاستيلاء على الارض، وتحقيق الارباح باستغلال الايدي العاملة الرخيصة للحصول على نتاج جزيل في المصانع التحويلية التى أقامها الاجانب . أما هؤلاء المهجرّون فيكفي أن يعيشوا في بيوت من الصفيح أو القصدير القديم في الكاريان سنطرال أو في حي " ابن مسيك " وكلاهما من الاحياء القذرة التى لا تصلح للسكنى . (٣)

---

(١) يعمل استاذا جامعيا ، صدرت له ثلاث مجموعات قصصية وثلاث روايات . انظر مقدمة : الزمن المقيت، (رواية) المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٣ ، وانظر ايضا مجلة : الحياة الثقافية ، تونس، عدد خاص بأدب المغرب، مايو (ايار) ١٩٨٠ ، وانظر : بول شاوول : علامات من الثقافة المغربية الحديثة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٩ ص ص ٥٧-٦٣

(٢) الرواية ١٢٨

(٣) مبارك ربيع، الريح الشتوية ١/ ١٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويغرق الكاتب في وصف دقائق الحياة، وتفاصيلها الصغيرة، داخل هـذه الاحياء، كما يسلط الضوء على الصراع الداخلي النفسي الذي يتفجر في صدر العربي الحمدوني ، وابن عمه كهور الذى سبقه الى هذا الطراز من الحياة، الى أن يلتقي بالمذكوري، وهو رجل فلاح ، له قصة مع المستعمرين تشبه قصة الحمدوني . .واصدرت المحكمة قرارا باعادة الارض له ، ولكن التنفيذ لم يحدث، ففقد المذكورى عقله ، وراح يشتم كل من هبّ ودب: " المحامين ، الشوّاش، السماسرة، الترجمان الذى يقف في المحكمة ليخدم النصراني قبل ان يخدمك أو يخدم العدالة" (١) ويقدم للحمدوني درسا ظل يذكره .

وقد صار المذكورى نموذجا ومثالا في نظر الحمدوني . فكيف استطاع ان يظفر بقرار المحكمة ؟ " لا بد أنه ولي صالح ولا شك " . (٢)

لم يستطع الحمدوني بسبب القضية التي يحملها بين جنبيه ، وبسبب تشبثه القوى بتكوينه ، من حيث هو فلاح ، أن يعيش بعيدا عن الارض، لهذا كانت المدينة في نظره كيانا أجوف هائلا مفككا . (٣) على عكس الرؤية التى قدمها لنا القاص عبد الكريم غلاب . ففي فاس تبدو الأمور على خير ما يرام أما هنا فان الحياة تفتقر الى كل احساس بالمعنى . فالنفاق الاجتماعي هو السائد ، والعلاقات المادية هي المسيطرة، والانسان لا يتعرف على أخيه الانسان ، والجار لا يكاد يعرف جاره ، والسوق عبارة عن مشاجرة كبرى بين البائعين والمشترين . ولهذا فان الحمدوني لم يتأقلم بسرعة مع هذا المناخ بل ظل يتذكر أرضه في كل لحظة متسائلا عما يدور فيها الآن . هل ما تزال تجود بالعطاء أم أنها اجدبت غيظا وكمدا ؟ . (٤) وينقم على المستعمر المستغل" النصراني ولد الكلب. . . عِمْل العَجَب في الفلاحة والارض" . (٥) واصحاب الارض تحولوا الى عمال يستغلهم الاجانب .

---

(١) المصدر السابق نفسه ١ / ١٩-٢٣
(٢) المصدر السابق نفسه ١ / ٧٩
(٣) المصدر السابق ١ / ٨٠
(٤) المصدر السابق نفسه ١ / ١٠٠
(٥) المصدر السابق نفسه ١ / ١٠٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التحول الطبقي في المدن :

وهكذا بدأ الفلاحون يفقدون انتماءهم بسبب الاجور العالية، وينتقلون الى المدن ليصبحوا عمالا . وفيما كان الغلاب لا يميز بين اطراف الصراع في روايته ، اذ جعل الجميع يقاومون المستعمر بدءا اللطيف مثلا ، ولم يشر الا لتقاعس الحاج التهامي في بعض الاحيان ، وتخاذل عبد الغني ، الا أن مبارك ربيع ، من خلال شخصية الحمدوني ، أبصر أعداء الوطن الحقيقيين ، وهم الذين ساعدوا الاجانب على تزوير الوثائق واغتصاب الارض، وفي مقدمتهم القائد (الحاكم الاداري) و(الشيخ*) وهذا وعي متقدم جدا من الحمدوني . وكان لقاؤه بالمحامي (موهوب) الذي ينحدر من أصل جزائري بارقة أمل شجعته على العمل والمتابعة لفضح التزوير والتلاعب واستعادة الارض . فالحياة الجديدة في المدينة الكبرى لم تستطع أن تشدّه، أو تنسيه الماضي الذي أراد الغلاب دفنه . وانما اراد أن يستغل وجوده في المدينة للحفاظ على هذا التراث، ولكن موهوب - كأي محام ينحدر من طبقة برجوازية - بعد ان يكتشف التلاعب .. يتصل بخصوم الحمدوني ، فيقنعونه بمبلغ من المال لقاء السكوت على عملية التزوير، والحمدوني يرفض هذا المبلغ رفضا قاطعا ، فليس اعز على نفسه من أن يحيا ويموت مع رمز الارض الخالد : (الزرع) . (١)

ومع ان الحمدوني يتعزى بين الحين والحين بأثنين ممن يراهم فقدوا الامل بإعادة الأرض وهما : كهور ابن عمه ، والمذكورى ، الذي جن ، فإنه يواصل اتصاله بالمحامي . وهذا بدوره يواصل اقناع الحمدوني بالتنازل عن هذه القضية فهي خاسرة على الرغم من ثبوت التزوير والتلاعب بالوثائق (٢) بل يزيد فيؤكد ان اراضي الارياف كلها مهددة بالسلب، لان المستعمرين بحاجة الى أيدٍ عاملة في المدن ، ولا سبيل لذلك الا بدفع سكان القرى للهجرة بمختلف الطرق (٣) . ويكرر المحامي نصائحه بقبول التعويض، وشراء العقارات في المدينة، حيث المستقبل الاحسن ، لكن الحمدوني يرفض كل هذه العروض، مصرا على متابعة القضية واستعادة الارض ،

---

* كلمة الشيخ في المغرب لا علاقة لها بالامام أو رجل الدين وانما هي منصب اداري

(١) مبارك ربيع : الريح الشتوية ١ / ١٣٩
(٢) المصدر السابق نفسه ١ / ١٥٨
(٣) المصدر السابق ١ / ١٥٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وينضم كبور الى المحامي في اقناع الحمدوني (١) بيد أن الجهود لا تمنى بغير الفشل الذريع .

وتقع الحرب، ويذهب المحامي موهوب للالتحاق بالجيش الفرنسي ، فهو ضابط مسرّح ، وتذهب بذهابه الوثائق ، ويأتي القحط، ويتخلى العربي عن بيع القمح في السوق ، وهي المهنة التي اتخذها في المدينة لتذكره على الدوام بالفلاحة والارض، ويضطر الى العمل في مصنع السكر، وفي قسم الميكانيك يتعرّف الى نمط جديد من الحياة يتسم بتقديم الجهد الأكبر لقاء الأجر الأقل ، مع تحمّل الإهانات اليومية، وليت الامر يقف عند هذا الحد ، فالعمل المتواصل لم يترك له فرصة واحدة لمتابعة قضية الارض، ويندمج الحمدوني شيئا فشيئا في الوسط الجديد ، وتنسلّ مسألة الارض من حياته في شيء من الخفة لا تكاد تلحظ، ولكن ما تلبث احدى الآلات ان تسحق الحمدوني ليختم القاص بموته مرحلة البحث بوسائل القضاء عن الحق المسلوب لتبدأ مرحلة جديدة بأسلوب جديد .

موت الحمدوني ونهاية الطور الرومانسي :

واذا كان موت الحاج التهامي في " دفنا الماضي " رمزا لنهاية جيل محافظ، وانهيار طبقة الاقطاعيين لتصعد على أنقاضها البورجوازية الجديدة فان موت العربي الحمدوني في " الريح الشتوية " جاءت رمزا لنهاية الطور الرومانسي الذى يتمثل في البحث عن الاستقلال عبر المحاكم والقوانيين والهيئات الدولية .. الخ . وهو ايضا رمز لانتقال الشرائح العمّالية الوليدة من اصلاب الفلاحين المغلوبين من طور الاستكانة والتسويف واللامبالاة الى طور التكتل والتنظيم والمطالبة بالحقوق والتجمّع النقابي . وفي هذا الفارق بين الروائيَّيْن ما فيه من وضوح مردُّه اختلاف الرؤية التي تغلب على كل منهما . فالأول ينطلق من منظوره السلفي الضيق الذى لا يرى الامور الا من خلال وعي النخبة، والطبقة العالية، في حين أن الثاني يبدأ من الارض، والعمل ، ويرتقي الى مرتبة التفكير بالعمل النقابي . فهو يستهل الجزء

(١) مبارك ربيع : الريح الشتوية (م٠م) ١ / ١٦٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الثاني بسرد لما حدث من تطورات على أسرة الحمدوني بعد استشهاده . فالزوجة تضطر للعمل في مصنع لتعليب السردين من اجل ان تواصل الحياة هي واولادها بعد أن فقدوا الاب وفقدوا كل أمل بالارض(١) وفي الوقت نفسه نجد (المسّيد) الذى كان في " دفنا الماضي " نقيض المدرسة العصرية الجديدة، نجده منطلق الثوريين المبشرين بالحقوق الوطنية، وهنا نجد القاص يجمع بين الفكرة السلفية والثورة على المستعمرين في وقت واحد، بينما لم يوفق الغلاب في اكتشاف هذه الجدلية بينهما . ومن خلال وعي صفية بنت سويعد بالاحداث نتعرف الى أول محاولة لتنظم العمال في نقابة، وكان أول عمل قاموا به هو اضراب التباطؤ عن العمل لدعم مطالبهم(٣) تلك المطالب التى تتلخص في : رفع الاجور، تعويض عن ساعات العمل الاضافية، اعطاء فرصة غداء، تعويض للسكنى ، المساواة بين العمال المغاربة وغيرهم من الفرنسيين(٤) . ويتضح أن الحدث الذى دفع بالأشخاص لاتخاذ هذه المواقف الحاسمة هو موت الحمدوني . وكان كبور ابن عمه من اوائل المفكرين بالعمل من اجل تنظيم العمال لتحصيل مطالبهم الطبقية (٥) وكانت النتيجة بالطبع هي طرد العمال من المصنع، واضطهادهم وتشتيت شملهم(٦) ، واستخدام بعض العمال الوطنيين، لضرب الحركة العمالية في المهد (٧) والاعلان عن انه لا يجوز لعمال المغرب أن ينشئوا نقابة وانهم يستطيعون الانضمام لنقابات العمال الفرنسيين(٨) ويقف عدد من العمال ضد هذا الموقف هاتفين " تحيا النقابة المغربية " ويطردون من العمل، منهم : احمد المزّابي ، والمعطي الجيلالي . (٩)

ظهور الوعي النقابي :

وتبدأ الفصول اللاحقة عملية بث الوعي السياسي والنقابي بواسطة المنشورات السياسية والحزبية . ويدرك العمال في مصنع السكر ومعامل تعليب الاسماك العلاقة

(١) مبارك ربيع، الريح الشتوية ٢/١٧
(٢) المصدر نفسه ص ص ١٩-٤٦
(٣) المصدر نفسه ٢/٨٣
(٤) المرجع نفسه ص ٨٦
(٥) المرجع نفسه ص ٨٧
(٦) المرجع نفسه ص ٩١
(٧) المرجع نفسه ص ٩٣
(٨) المرجع نفسه ص ٩٤
(٩) المرجع نفسه ص ٩٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الجدلية بين السياسة وتكوين النقابة . وفي ضوء انخراطهم في هذه العملية يقوم المستعمرون بتشتيت جمهور العمال من أحياء الكاريان سنطرال وبن مسيك لاجهاض المسيرة الوطنية قبل ان تكتمل .

وفي الصفحات اللاحقة يقص علينا المؤلف كيف حاول المستعمرون عن طريق عملائهم احراق الاحياء المكتظة بالسكان ، وكيف استطاع العمال وعائلاتهم مكافحة الحريق . ثم استيقاظ الوعي السياسي والقومي وتردد الخطباء على الحي . واستمرار العمليات المناهضة للإحتلال الاستعماري الى ان يفقد المستعمر صوابه ويلجأ الى القمع بالحديد والنار مما يزيد من تاجيج الاحداث، واثارة الجماهير من عمال وطلاب

والكاتب، رغم ايغاله في التفاصيل ، وتوقفه لدى المراحل التاريخية توقفا ذكيا ملفتا للنظر، الا أنه لا يستمر الى طور الاستقلال في هذه الرواية . وكأنه اراد من الرواية ان تصور لنا التحول الاجتماعي الذى اصاب طبقة الفلاحين أو البدو ، وهجرة الاعداد الكبيرة من هاتين الفئتين الى المدن ، وصعود طبقة اجتماعية جديدة هي الطبقة العاملة ، وتفجّر وعيها الطبقي المزدوج : ضد الاستغلال الطبقي وضد القهر السياسي . وهو بهذا يتمم ما افتقرت اليه رواية " دفنا الماضي " فهي تلمح على تطورات الطبقة العليا (الاقطاعية) وهنا تركز على تحولات الطبقة الاخرى : (الفلاحين)، وبهذا يكون المغرب قد خرج من تكوينة الثنائي ، وسار في طريق التكوين الاجتماعي الحديث، ولكن أيّ هذه الطبقات لعبت دورا كبيرا في الاحداث ؟ هل هي البورجوازية كما يرى عبد الكريم غلاب أم الطبقة العاملة كما يرى مبارك ربيع ؟ هذا ما تجيب علية رواية أخرى للكاتب الثاني وهي رواية " الطيبون " . (١)

رواية بامو والتأكيد على المنظور السلفي :

وقبل ان نتحدث عن رواية مبارك ربيع " الطيبون " يجب أن نتوقف لدى

(١) مبارك ربيع : الطيبون ط٢ : دار الثقافة، الدار البيضاء، (المغرب) ١٩٨٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رواية ثالثة هي رواية " باموّ " (١) لمؤلفها أحمد زياد ، وذلك لاكثر من سبب . فاما الاول فلانها رواية تتناول الاحداث نفسها التي توقف لديها كل من الغلاب وربيع في روايتيهما المذكورتين . والسبب الثاني ان هذه الرواية تتناول جزءا من الاحداث وجزءا من الاطار المكاني ، يتمّمان ما جاء في الروايتين .

واذا كانت دفنا الماضي تنطلق من " فاس" والريح الشتوية تنطلق من"الكاريان سنطرال"في الدار البيضاء فإن رواية " باموّ " آثرت أن تذهب بعيدا الى جبال اطلس المتوسط حيث الأقاليم التي تطغى عليها الحياة البدوية والقروية ولا سيما اقليم بني ملال ، وقرية ووزغت تحديداً،ثم " القُصَيْبَة "، و" قصبة تادلا " . والتوجّه لهذه الاماكن ليس من قبيل التزود بمعلومات تصلنا بباب من ابواب الجغرافية الادبية ولكنها رؤية للواقع التاريخي من زاوية جديدة .

" فباسو " - لاحظ غرابة الاسم - وزوجته " باموّ " يعيشان بهدوء ونعيم في قريتهما (ووزغت) . الاول يحترف الحدادة : فهو يصنع ما يحتاجه الفلاحون من ادوات للحرث والحفر وما يضاف الى سروج الخيل والبغال والحمير فضلا عما يحذون به الحوافر ، ومثل هذه المهنة تتطلب منه التجول بصورة دائمة في الاسواق الاسبوعية التي تعد وسيلة الاتصال بين القرى بعضها ببعض ،وأما (باموّ) فهي مثال الزوجة الصالحة التي تجمع بين الرقة والجاذبية والوفاء لزوجها رغم تحرّش الكثيرين بها .

ولكن لسوء الحظ فإنّ الحياة لم تسر على هذا النحو كما يريدان . فقد كان حديث الناس يدور حول النزاع على الارض،فالمستعمرون استولوا على اراضٍ تعود ملكيتها للاسرة . ولم يكن من السهل تناسي مثل هذا الحدث.(٢) وكيف يمكن ان ينسى باسو ذلك وهو يسمع في كل يوم خبرا جديدا عن استيلائهم على أرض جديدة(٣) واخبارا عن خلايا سرية يتم تنظيمها في المدينة القريبة يقولون عنها انها تريد أن تقف في وجه الغاصب وتفتّ في عضده وتطامن من عناده ؟ (٤) علاوة على ذلك فإنّ

---

(١) أحمد زياد ، باموّ، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٧٤، والمؤلف هو مدير تحرير العلم السابق ، ويعمل موظفا كبيرا في وزارة الاعلام ، صدر له : "الحركات الفكرية في المغرب" .

(٢) أحمد زياد : باموّ ص ١١

(٣) نفسه ص ١٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

باسو الذى نشأ في اسرة شديدة المحافظة على العرض والشرف ما فتيء يصغي الى أخبار كثيرة تتناقلها الألسن حول أنواع الفساد وفنونه مثل فتح الحانات ومراكز البغاء التى جاء بها المستعمر (١) فضلا عن تهجير القرويين والفلاحين من البوادى والارياف للمدن ليكونوا أيد عاملة في المعامل والمصانع (٢) ولمّا كان تراكم الاجراءات التعسفية للاحتلال سيؤدى حتما الى اثارة الوطنيين فقد كان ما سمعه باسو عن صيام ٣٠ مارس آذار من كل سنة أول اشارة عملية لظهور التيار الوطني الذى بدأت اخباره تستأثر باهتمام باسو . (٣)

ولما كان باسو لا يعرف القراءة ولا الكتابة فقد اضطر ان يصغى لجاره (عقّا) الذى كان يقرأ على مسامعه الصحف السرّية والمنشورات التي كانت تصدر عن الوطنيين (٤)

ومع ان هذه الرواية تنمو في أحضان الريف، وتتخذ من العمال الحرفيين ابطالا لها فان تشبع كاتبها بوجهة النظر الدينية كما تجلت في الفكر السلفي الذى تغلغل في المغاربة قبيل الاستقلال ، طبعت النص، وروّى الاشخاص، بالطابع الاخلاقي أكثر مما طبعته بالطابع الاجتماعي الذى رأيناه في رواية " الريح الشتوية " لمبارك ربيع، ونستطيع ان نجد آثار هذه النظرة الى الواقع من خلال التركيز على انحرافات المستعمر وشذوذه الاخلاقي وتشبث باسو بقيم السلف . من جهة اخرى فان إخلاص الكاتب للتاريخ جاء على حساب اخلاصه للفن ، فهو يترك الابطال جانبا ليتخذ مظهر المؤرخ الذى يعنى بتحديد الحادثة في الزمان والمكان (٥) واذا كان " الفلاب" قد جعل من المدرسة العصرية شرارة أوقدت نار الوعي في عبد الرحمن ، وجعل مبارك ربيع فقيه (المسّيد) الى جانب الشاب (المطربش) الذى يحدث الناس بافكار العصر معا يدعوان الناس للثورة ، فان أحمد زياد جعل الفقيه (سي موسى) وهو عنوان التعليم التقليدى (الاصيل) يعلّم الحِرفيّ الحداد " باسو" مبادىء الكتابة والقراءة . . . بحيث يعتمد على نفسه في قراءة الصحف والمنشورات . وهذا التعليم كان له اثرة في باسو، ولهذا فقد سارع الى التظاهر مع صديقه عقا وغيره من ابناء

---

(١) نفسه ص ٢٦
(٢) نفسه ص ٣٧
(٣) نفسه ص ٣٩
(٤) نفسه ص ٤٢
(٥) نفسه . ص ٧٣ وص ٧٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

القرية تأييدا لوثيقة ١١ (يناير) كانون الثاني ١٩٤٤ المطالبة بالاستقلال مما قاده الى السجن (١)

ولقد كان السجن مدرسة لباسو . فلا يرتاح في حديثه مع المعتقلين ويكتسب منهم معرفة بالحياة والعالم .

وفي اثناء وجوده في السجن يقوم الحاكم الفرنسي باستدعاء (بامو) بعد أن سمع ما سمع عن جمالها واعتزازها بنفسها وعفتها . ويحاول هذا الحاكم استمالتها واغراءها بالمال والزواج ولكنها ترفض ذلك بأباء وشمم . ثم يأمر باحتجازها في قصره الأمر الذى شغل القرية وادّى الى مزيد من البلبلة والتشويش(٢) وما لبثت سلطات الحماية ان نقلته الى مدينة قريبة هي مدينة (القصيبة) التى فرض عليها نظاما عسكريا خاصا ولم يسمع بامو بقصّة اختطاف زوجته الا بعد خروجه من السجن . وعندئذ يظهر عامل جديد في الرواية وهو " الحنصالي " الذى أخذ على عاتقه مهمة اخراج (بامو) من قصر الحاكم الفرنسي واعادتها لبيت الزوج وانقاذ الشرف المغربي .

شخصية من الواقع :

وهنا يجب ان نتوقف لحظة لدى شخصية الحنصالي ، فهذه الشخصية ليست خيالية من ابداع الكاتب وانما هي شخصية حقيقية . وقد اهدى الكاتب روايته هذه الى " روح المناضل العصامي الشهيد محمد الحنصالي تقديرا وتمجيدا لدوره الرائد في ساحة المقاومة والكفاح من اجل انتزاع الحرية والاستقلال "(٣) وحقيقة الامر أن الزائر الى مدن المغرب لا تفوته ملاحظة هذا التقدير المتمثل في اطلاق اسم الحنصالي على عدد غير قليل من الساحات والشوارع، والاماكن .

وعلى ذلك فان الحنصالي بطل " شعبي " وغير متخيل ، وهو لا يحتل من

(١) نفسه : انظر ٧٤-٩١
(٢) احمد زياد : بامو، ١٠٨
(٣) نفسه ص ٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

القصة سوى ثلثها الاخير، فإلى جانب الفقيه (سي موح) والفقيه (سي موسى) يتمكّنون من تخليص (بامو) من الاسر، وفوق ذلك فان الحنصالي يثور في وجه المستعمر ويحتل مرّيضا يقطع به الطريق على الاجانب بين القصيبة وزاوية الشيخ فضلا عن بني ملال . وتسقط بسببه عشرات الجود الفرنسيين الامر الذى يقلق الحماية فتجهز بدورها جيشا ضخما يزودا بدبابات وبسلاح جوى، ورغم ذلك يتمكن الحنصالي من الافلات غير مرة، ويسقط طائرة، ولكن الكثرة تنتصر في النهاية على الشجاعة ويستسلم الحنصالي خاتما بهذا الاستسلام الذى جاء بعد نفاذ الذخيرة قصة بطولية خارقة .

والقاص أحمد زياد لا يعنى بالطبع برسم البطل وملامحه وخفايا حياته اليومية . وهو في هذا انما يطلق في بطاح نصه الروائي بطلا شعبيا مذكورا لا يحتاج الى تعريف . أما بامو فهي تصاب بمرض ثم تموت . ويقضي باسو بقية حياته يترقب اخبار النضال في المغرب الى أن يتم الاستقلال .

هذه الرواية تصل بالقارئ الى سنة (١٩٥٦) وهى سنة الاستقلال مثلما فعلت رواية " دفنا الماضي " في حين أن رواية " الريح الشتوية " توقفت لدى الايحاء بهذا الاستقلال . وامعان النظر في الروايات الثلاثة ينم على مستويين في الرؤية القصصية : المستوى المحافظ، السلفي، المشبع بايديولوجية الاستقلاليين ذات الطابع الديني والقومي والاخلاقي . . . في حين أن المستوى الثاني أقرب الى ما أسميناه بالعقلية الراديكالية في أثناء حديثنا عن الجذور (السوسيو ثقافية) في المغرب . فمبارك ربيع كما أشرنا : يدين المرحلة، ويدين المقاومين مع الاحتلال، ويدين الوضع القائم، ويوضح تطور المجتمع بشرائحه البورجوازية، والفلاحية، والبدوية، بما يتفق مع الفهم التجريبي المادى لتطور المجتمع البشرى .

ولعلّ توقفه مع الاحداث قبيل الاستقلال لأمر يؤدى لخلق الانطباع بان الكاتب لا يرى في الاستقلال استقلالا حقيقيا، أو لعله يرى فيه خطوة اولى على طريق الاستقلال الكامل الذى يتحقق بتحرر الوطن من التخلف والتبعيّة للأجنبي . . . .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

" الطيبون " والجيل الحائر :

أشرنا في الفصل السابق لرواية " الطيبون "(١) لمبارك ربيع التي صدرت الطبعة الاولى منها في وقت مبكر هو عام (١٩٧١) .

وترجع أهمية هذه الرواية الى كونها أول رواية تصدر بعد الاستقلال وتحاول ان تعالج من منظور مرهف اوضاع المغرب . وما جدّ فيه من أحداث . واذا كان المؤلف قد استعاد في " الريح الشتوية " ما حدث قبيل الاستقلال وبشر بولاده الفجر الجديد ، وبالتحولات الاجتماعية الكبرى فانه هنا يضع أبطاله على مفترق طرق ، ويتركهم حيارى لقوى الجذب والدفع التي تشحن القصة بعوامل التوتر والصراع .

ولا ننسى هنا أن نذكر بموضوع الارض الذى كان حجر الزاوية في رواية " الريح الشتوية " فهو في " الطيبون " حجر الزاوية ايضا . لأن العم استولى على أرض أخيه بعد وفاته ، وظلت اسرة قاسم تتطلع الى اليوم الذى تنتصف فيه من العم الشره ... وشيء آخر يجدر ان نذكر به وهو اختياره للأبطال من القرى . ولكنهم يضطرون لسبب ما الى النزوح عن القرية والاستقرار في المدن . ولهذا فان (قاسما) بطل الرواية لم يعد يهتم بالارض وانما اصبح شغله الشاغل أن ينسجم مع أجواء المدن وان يتغلب على موروثه من الحياء والخجل ليستمر في علاقته مع الجامعية (هنية) ويواصل الدراسة في قسم الفلسفة لتحسين أوضاعه المعيشية والثقافية . وفي الجامعة يواصل الاقبال على قراءة الكتب بنهم ، فهو مثقف ، وعاشق .

وحين تختفي (هنية) فجأة يعود قاسم للبحث عن ذاته . ويجد نفسه بين ثلاثة تيارات . الاول منها تيار اليسار ممثلا بالادريسي الذى يتصف بالتطرف ، وتيار المعتدلين ويمثّله (عزّوز) صاحب الدعوة الى التعقل والرزانة والحكمة . وتيار الانتهازيين والوصوليين ممثلا بغنّام الذى يعمل بالمثل القائل : " اجذب الخيط في الوقت المناسب " (٢) وبعد ذلك يلتقي قاسم باثنين يؤثران في حياته ويزيدان من

---

(١) مبارك ربيع : الطيبون ط٢ منشورات دار الثقافة ، الدار البيضاء ، ١٩٨٠

(٢) مبارك ربيع : الطيبون (مصدر مذكور) ص ٤٤-٤٥ وانظر الفصل السابق من هذه الدراسة ص

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أزمته المدمره وقلقه الفكرى وهما :الوعدودى ، الذى يكفر بكل شيء عدا الكأس، والاستاذ (نورى) الذى انفتح له باب التصوف فسلا الفكر والفلسفة، وأصبح يتردد على الشيخ ، معتقدا أنه سيعثر على نفسه في ممارسة الطقوس .

ويقرر قاسم بعد ذلك انه غير مقتنع لا بغنام الوصولي ، ولا بأستاذه نورى ، ولا بالمنصورى صاحب الدعوة الى أعمال الخير ولا بمهنية التي فقدها الى الابد ، وحين يقترب من عزوز والادريسي - ممثلا المنظمة الطلابية - يبعده عنهما زحام المسيرة ويقذفه الى شاطيء آخر .

لقد طرح الكاتب في روايته هذه اكثر من مشكلة يعاني منها الفرد في المغرب الذى استقل حديثا . فمن بين هذه المشكلات ذات الطابع الاجتماعي " قضية الارض والفلاحين " فقد كشفت الرؤية عن اخطاء وقعت في توزيع الاراضي على الفلاحين ، كما أومأ الى عملية الاستيلاء على الأراضي من قبل الملاكين الكبار في أثناء الحماية بتأييد من المستعمرين . وقد بقيت هذه الاراضي مستكملة . ولم تعد لأصحابها من صغار الفلاحين .

كما القى الكاتب الضوء على عملية التحول الاجتماعي ، من طغيان التركيب الاقطاعي الى ظهور النمط الرأسمالي المشاكل للنمط الغربي .

شخصية المنصورى مثلا وكذلك التهامي ، وتحكم الطبقة الوليدة بطاقات البلاد الاقتصادية وخيراتها . وانتقد كذلك جانبا من الطبقة الوسطى ونماذجها "غنام" مثلا . كما يطرح الكاتب ايضا مشكلة التيارات الثقافية والفكرية المتعايشة في المغرب . مثل تيار الطرقيين ، واليساريين الطلابيين والمقاومين ممن ذكرناهم في مستهل هذا التحليل . والى جانب ذلك جيل الضياع والقلق الذى رمز اليه بقاسم فقد وضع مبارك ربيع منذ البداية علامة استفهام حول البطل . واختتم الرواية بعلامة الاستفهام ذاتها . فما الذى يريد ان يقوله ؟ هل يريد ان يقول :ان شباب ما بعد الاستقلال ضائعون قلقون ؟ أم أنه اعتمد على كلمته الاخيرة " رأس عزوز وكتفاه في الزحام الى جانب رأس اشعث كأنه الادريسي ، ودافع قاسم في الزحام ليتحقق من

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

صدق خياله ، واقترب منهما ، وابعدته حركة الزحام من جديد " .(١)

فهل يعتمد على هذه الكلمة ليزعم بأن قاسما وجد نفسه أخيرا في تيار عزوز والادريسي ؟

لا نستطيع ان نسلم بهذا الاحتمال ، لان قاسما حين ابعدته حركة الزحام عن الرفيقين لم يكرر المحاولة من جديد . وهذه الحركة نفهم منها ان مصير قاسم لا يرسمه بنفسه ، وانما تختطه له أقداره ، وقد اراد له الكاتب ان يكون مسوقا بقدرية قاهرة ؛ فلا هو بالقادر على مواجهتها ، ولا رغبة لديه في أن يصنع مصيره بنفسه . فقد كان دائما يشعر بأنه غير مسؤول عن الارض غير مسؤول عن جناية أمه ، غير مسؤول حتى عن هداية نفسه . وكان مستأنسا لوحدته وانطوائه وعزلته والخروج منهما يمثل بالنسبة له مغامرة . وفي علاقته بهيبة لم يكن ثمة ما يجعله يحس بالمسؤلية فلم يحاول أن يطورها ، بل لم يجرؤ على مخاطبتها والافصاح لها عن شعوره الا عبر الرسائل وبعد أن اختفت من حياته للأبد .

والواقع ان رواية " الطيبون " تسلط الاضواء على الاحوال الاجتماعية في المغرب بعد الاستقلال الشكلي كما يعتبر غير واحد من الكتاب(٢) وتعبر عن حالة القلق التي شملت الاشخاص . . . دون أن تتجافى لحل الكثير من مسائل التكنيك الروائي . فالكاتب توكأ على الزمن ، وعلى الأشخاص، ولم يترك لغير (قاسم) ان يكون شخصية نامية متطورة تختلف أوضاعها من فصل الى آخر . فهو نموذج البطل (الاشكالي) بتعبير لوكاش . فهو مأزوم في عالم مأزوم ، ويبحث عن حلّ للأزمة فلا يجد غير القلق بانتظاره ، ولعل هذا هو الوضع النفسي المتاح لشاب مغربي مثقف في تلك المرحلة من التاريخ .

مشكلات الجيل ومحنة المثقفين :

وفي رواية " جيل الظمأ " لمحمد عزيز الحبابي(٣) معالجة واضحة لمسألة

---

(١) ربيع مبارك : الطيبون (مصدر مذكور) ص ١٨٥

(٢) انظر : ادريس الناقوري :المصطلح المشترك، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، ط ٣ ، ص ص ١٠١-١١٥

(٣) محمد عزيز الحبابي ، جيل الظمأ (رواية) ، الجمعية المغربية للتاليف، الدار البيضاء، ط٢ ، ١٩٨٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المثقفين وصراع الاجيال بُعَيْد الاستقلال . الامر الذى يجعلها على قرنٍ مع روايـــة " الطيبون (١) لربيع مبارك . ففيها نجد شخصية ادريس، وهو مثقف مغربي ، تخـرج من القاهرة والسوربون (٢) وهو لا يعير العالم الخارجي ادنى اهتمام وانما يعنـــى بافكاره ، وبوجوده الخاص (٣) ، وقد يقضي سحابة نهاره في مكتبته يقرأ ، ويكتب . فالهدف الذى يسعى اليه هو ان يكون كاتبا ادبيا (٤) الا ان الحيرة تساوره بسبب العمل فاغراء الوظيفة الرفيعة يشده الى العمل .. في حين ان جاذبية الاثر الادبي الرائع المتوقع، والخلود الفني ، يشدانه الى التفرغ (٥) ومن المسائل التى تشغل عقلـه وتملأ عليه فكره وضع المثقفين .

في الحوار الذى يدور بين ادريس وسكرتيرته تقول الأخيرة : " مع الأســـف، المثقفون - لا سواهم - هم حماة الزيف الاجتماعي ، والانحراف الخلقي " . وفي موضع ثان تقول :" يبدو أن المثقفين ابعد من أن يتفهموا شقاء أو سعادة الفئة الفقيرة البائسة "(٦)

ولكنه يختلف معها في أن ثمة نوعين من المثقفين : احدهما يبحث في الثقافة عن قبس للعمل المجدى ، وعن التقدم المثمر، في حين ان النوع الثاني لا يبحث الا عن الطلاء لاخفاء ما يشعر به من نقص (٧) وفيما تكون السكرتيرة (فاطمة) متشائمة بشأن المثقفين فان إدريس متفائل على نحو ما . (٨)

المسألة الثانية المهمة التى تتطرق اليها الرواية هي صراع الاجيال ، والمقارنة بين جيل الاستقلال والجيل الذى سبقه . ومهّد القاص لهذه المقارنة بظهـــور شخصيتين طريفتين هما :" المنجّد " الذى جاء من أجل تنجيد الفراش وابنه الشـاب وقد اثار دخولهما المفاجئ منزل البروفسور ادريس عاصفة من الثرثرة تم خلالهـــا

(١) مبارك ربيع، الطيبون ، ط٢ ، دار الثقافة ، ١٩٨٠
(٢) هذه الصفات التي أضفاها المؤلف على البطل هي جزء من صفاته فقد تخرج من القاهرة ، ودرس في السوربون ، ويعمل استاذا في كلية الاداب في الرباط
(٣) الرواية : ص ١٠
(٤) المرجع نفسه ص ١٢
(٥) المرجع نفسه ص ١٣
(٦) المرجع نفسه ص ٢٦
(٧) المرجع نفسه ص ٢٧
(٨) المرجع نفسه ص ٢٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

استعراض هذه الفوارق . ومن خلالها يتضح لادريس وجود عالمين متباينين ، متضادين يجهل احدهما الآخر ، " مفهومان متباينان للعالم ، وصورتان متنافرتان متباعدتان للانسان . حياة مغلقة على ذاتها وحياة زاهية ملؤها الامل المشرق " . (١)

وينتقد الشاب جيل المتقدمين لانهم لا يستجيبون لارادة التغيير ، ومكتسبات العصر ، " كان من الاجدر بك أن تتبع أوامره السديدة ، ونصائحه الرشيدة ، فتسمح لاولادك ان يتابعوا دروسهم ، ولبناتك ان يتحررن ، كما تحررت الاميرات " .(٢)

ويتطرق الى مجمل الاوضاع الجديدة بعيد الاستقلال ، ودور المثقفين ، وعلاقة المغرب بالغرب . " أمتنا تمرّ الآن بفترة من التطور والانتقال ، فلا يحق لنا ان نتطلب منها موظفين يتصفون بالحنكة والكمال والدربة . وأكثر ما تحتاجه في هذه الفترة هو التوعية الوطنية قبل الأخذ الاهوج من الثقافة والعلوم المتنوعة " (٣) ويشير الكاتب الى شيوع المحسوبية لدى الموظفين : " المحسوبية عندهم اصبحت مذهبا ، ومنهجا ، والوصولية غاية ، يحدوهم الى ذلك حب المال ، وسراب السلطة والجاه " (٤) وينتقد ولعهم بالمظاهر : " والمثقف المغربي يبالغ في العناية بهندامه ، حتى ان ما يقضيه من الوقت ، في ذلك ، يفوق ما يخصّصه للقراءة والعمل الفكري " (٥) .

وتلوح في أفق الرواية شخصية جديدة تمثل النوع الآخر من المثقفين الجدين وهي شخصية (عظيم) الذى تربطه صلة قرابة بادريس .

(وعظيم) هذا ابن عم ادريس ، تخرج من كلية الهندسة ، ويعمل دبلوماسيا في سفارة بلاده في احدى الدول الاجنبية . ولكنه يتقدم باستقالته .وهو يعتقد مثل (عزيزة) : السكرتيرة ، بأن المثقفين في المغرب من النوع الذى لا يقدر المسؤولية والفئة الطيبة منهم فئة زهيدة .(٦)

---

(١) المصدر نفسه ص ٣٦
(٢) المصدر نفسه : ص ٤١
(٣) المصدر نفسه ص ١٠٦
(٤) المصدر نفسه : ص ١٠٧
(٥) المصدر نفسه : ص ١٠٨
(٦) المصدر نفسه : ص ١١١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولا يطول الوقت حتى نكتشف ان السكرتيرة (عزيزة) هي من المثقفات، فقد تخرجت في ثانوية الليمون في الرباط، بتقدير حسن ، وهي واسعة الثقافة بفضل تردادها واختلافها المستمر الى (الخزانة) العامة بالرباط ، وهي مناضلة قديمة قضت سنوات في الكفاح النقابي ، بل كانت عضوا مسيرًا لاحدى النقابات الوطنية مما أكسبها تجارب غنية . (١)

وبعد ذلك نكتشف ان (عظيم) الذى ينحدر من عائلة عريقة، غنية، كان احب عزيزة، ولكن الظروف منعتهما من الزواج ، وأنه ظل يتحرى عنهما فترة طويلة حتى اكتشف وجودهما في دارة ابن عمه صدفة . ويجد الفرصة مواتية لتجديد الحب الذى مضى . ويكلف ابن عمه ادريس ان يخطبها له ، ولكن هذا الاخير يثور غاضبا لأن هذا الزواج مسخ لكرامة العائلة .

يقول ادريس : ان عزيزة سكرتيرة، وليس لها ماض عائلى رفيع، في حين انك يا عظيم مهندس، ودبلوماسي ، وابوك من أغنى تجار المغرب .(٢)

ويرد عليه عظيم فيصفه بأنه رجعي ، متخلف، يتشدّق بكلام يتناقض مع سلوكه اليومي . ثم يتساءل : من اين اغتنت عائلاتنا ؟ . اليس على حساب البؤساء المقهورين ؟ وعن طريق الاتجار بالسوق السوداء زمن الحرب ؟ (٣)

وفي نهايه القصة يفلح (عظيم) في اقناع ابن عمه (ادريس) بخطبتها له ... فيفعل ... ونلمس في أثناء المحاولة جانبا من شخصية عظيم الذى هجر الوظيفة والجاه لمتابعة النضال الذى ابتدأه في أثناء الحماية لان اوضاع المغرب بعد الاستقلال ليست بأفضل شأنا ، واحسن حالا ، من الوضع السابق . وعلى الرغم من أن الثغرة التي تطلع من خلالها الكاتب للاحداث والحياة تختلف عن تلك التي نظر خلالها مبارك ربيع الا أن النتيجة التي انتهت اليها الروايتان واحدة . فالجيل

---

(١) المصدر نفسه : ص ١٢٩
(٢) المصدر نفسه : ص ١٤٥
(٣) المصدر نفسه : ص ١٤٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الذى تفتح وعيه على الاستقلال وجد نفسه ضائعا يعاني من احساس بالخيبة المرّة . والرؤية التي تسود الروايتين هي رؤية انتقادية لا تفصح تماما عن تجاوز واضح لهذا الواقع الخائب .

خيبة الطبقة الوسطى في روايتي العروى :

وتتسم الرواية المغربية بتركيزها على موضوعات ذات صلة بالتاريخ المغربي المعاصر، والأوضاع السياسية والاجتماعية والفكرية التي شملت البلاد وشرائح المثقفين بعد الاستقلال الذى تحقق عام (١٩٥٦) . وروايتا "غربة"(١) و "اليتيم"(٢) لعبد الله العروى من الروايات التي عالجت هذا الموضوع .

أما رواية غربة التي تقع في أقل من (١٢٠) صفحة فهي من أصعب الروايات على القراءة، ويكاد القارئ الذى تعوزه الخبرة، وينقصه المراس بهذا اللون الادبي لا يستوعب منها مفهوما، ولا يظفر منها بفكرة . فهي ليست سردا قصصيا عاديا كالذى نجده في "دفنا الماضي" أو "الطيبون" أو أى رواية أخرى، وانما يتنقل الكاتب بين الاشخاص وهم :ادريس ومارية ولارة وشعيب ومريم تنقلا سريعا يخلط فيه كل الأوراق، وكل الاحاديث، ويمزج الذكريات المرتبطة بالماضي الذاهب بالاوصاف والتعليقات المرتبطة بالحاضر الآني . فالقارئ يتشتت ذهنه بين الاقواس التي تضم في داخلها حوار الأشخاص الداخلي، وحوار الزمن الذى ينمو وفق تسلسل مغاير لتسلسله الطبيعي . ولا يتحرك وفقا لقاعدة معلومة معروفة، والتشابك في الاماكن : المغرب، فاس، الرباط، مدينة الزيتون، ضريح سيدى غانم، باريس البحر، الدار البيضاء، وهذه الاماكن تقع خارج الاقواس أحيانا، وأحيانا خارج النص.

---

(١) صدرت الطبعة الاولى منها عام (١٩٧٢) في الدار البيضاء "المغرب" واعيد طباعتها في بيروت عام (١٩٨٠) والمؤلف ولد بازمور سنه (١٩٣٣) وهو استاذ جامعي وله مؤلفات عديدة .

(٢) صدرت طبعتها الاولى في الدار البيضاء عام (١٩٧٨) ، ثم اعيدت طباعتها في بيروت مع رواية "غربة" في مجلد واحد عن دار المركز الثقافي العربي .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وثمة حركة سردية معينة نستشفها من هذا الخليط المضطرب، الرجـــراج، وهي حركة مارية وادريس، فماريـة خاب أملها بما جدّ على أرض المغرب من احـــداث بعيد الاستقلال . ولذلك فهي تحث خطيبها ادريس على الرحيل عن البـــلاد والاستقرار في باريس . وقد مضى على هذا النفي الاختياري خمس سنوات . وأمـــينة شعيب رفيق نضالهما فقد بقي في بلدته يبحث لنفسه عن انتماء فكري، أو اختيـــار ايديولوجي بين التيارات المتنابذة، وهنا يذكرنا (بقاسم) بطل رواية " الطيبـــون " لمبارك ربيع (١) والكل ينتظر عودة ادريس الذي سيجد البلدة على حالها " نائمـــة تافهـة " . (٢) وسيجد الحركة الوطنية وقد دبت فيها الخلافات واستشرت حولها الخصومات التي لا تنتهي . (٣)

وفي الفصل الثاني ينتقل بنا الكاتب الى باريس حيث ادريس ومارية ولارة ، وادريس عرفنا سبب قدومه لباريس ، أما لارة فهي لاجئة من عام (١٩٣٢) ، جاءت اليها مدفوعة باعجابها الشديد بالمغرب . وأما مارية فهي خطيبته التي رفضت الامـــور على ما هي عليه، وحثته على السفر والاقامة هناك بانتظار ما يجد . (٤) وعلى متن السفينة تتخيل مارية شخصا آخر، وهو عمر، الذي سافرت واياه الى باريـــس، ويدور بينهما حوار يعبر من خلاله عن الصراع الذي يحتدم بين جوانحه ازاء مـــا يجرى على أرض الواقع المغربي من خصومات وصفها بقوله : " اننا بالعنف نبدد الميراث ونضيع بذور المستقبل . وما نحن اذا لم ننبّه على خداع الحاضر " ، في حين أن مارية تهدّئه فتدعوه ان يترك المستقبل للأجيال القادمة، ومع ذلك فهي ليست علـــى خلاف معه : " يا عمر، ليس كلامك لغوا، انما أنت قطعة منا، ولم يكن حوارنا ســوى اعترافات متبادلة " (٥)

أما إدريس فانه يلخص موقفه من الاستقلال وذيوله بما يلي : " لقد أنهى المغرب كل ما استغله الدخلاء، وتحرر منهم، أما اولئك الذين لم تحسم الضـــرورة

---

(١) انظر ما يتعلق بهذه الرواية في الفصل الخامس ص ٨٨
(٢) عبد الله العروى : غربة واليتيم، ط بيروت، ص ١٢
(٣) المصدر نفسه ص ١٣
(٤) العروى : غربة واليتيم ص ١٤
(٥) المصدر السابق ص ٢٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

علاقتهم بالماضي فانهم محاطون بالاهمال ، بعيدون عن الحوادث" (١) وهم في رأية " يتفرجون على مسرحيّة لا دور لهم فيها ، في حين أن الشعارات الجديدة تلمع بجوارهم ، وتهزهم هزا " . (٢)

وفي القسم الثاني من الرواية نكتشف فشل المحاولات التي قام بها ادريس و مارية للتهرب من جلافة الاوضاع ، وخشونة ما يجرى . ويعودان الى المغرب - اولا - عن طريق الذكريات والرجوع بالذات الى الماضي ، واستعادة العملية التي قام بها شعيب . . . وما أوقعته فيه من اشكالات مع البوليس(٣) ثم نستبين بُعَيْد ذلك عودة ادريس الفعلية الى بلده . وعودة شعيب في الوقت ذاته الى مريده الشيخ ليتعلم تأويل ما خفي عنه ، الى ان تنقلب الامور ويخرس الشيخ . (٤)

وفي المقابلة الاولى التي تتم بين شعيب وادريس يكشف كل منهما رأيه في الاوضاع ، فشعيب يقول لادريس" قضيت الليلة في المسجد" . فيرد علية ادريس قائلا " لهو الزهد اذن ؟ " أما عائشة زوجة شعيب ، ورفيقة الكفاح في الماضي ، فحالها سيء جدا ، وهو لا يذهب اليها ابدا .(٥)

ويتجول ادريس في المدينة التي اطلق عليها الكاتب اسم مدينة الزيتون فيجد كل شيء على ما كان عليه . وأن الشيوخ الذين انساق وراءهم شعيب هم المهيمنون على الحياة . ويصغي الى صوت الاب ينصحه بان يتبع هذا الطريق " من أتمّ القرآن والاجرومية وسيدى خليل فتح الله عليه " . ويرد قائلا : " يا أبت إنّ طرق الماضي مغلقة أمامنا ، فاتركنا نبحث عن طريق جديدة " . (٦)

ويقول ادريس في تحليل الاوضاع : " الشعب متأخر جدا . ماذا تريدين ان نفعل ؟ لا يمكن ان نتحكم بالزمن . بل نحن عبيده . انا في الماضي كنت

---

(١) المصدر السابق ص ٢٣
(٢) المصدر السابق ص ٢٤
(٣) المصدر السابق ص ص ٤٠-٤١
(٤) المصدر السابق ص ٥٧
(٥) المصدر السابق ص ٦٢
(٦) المصدر السابق ص ص ٧٨-٩٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اطلب التعمق في البحث، والتأني في العلاج ، واعتبار المرحلة انتقالية، الآن المشكلة هي مشكلة حضارة لا مشكلة سيادة .(١) وفي رأى لارة ما يشاطر ادريس الاعتقاد ويؤيده . فالبلاد في نظرها لم تتحرر تماما وانما الذى تحرر هي القلوب . ولو تحررت البلاد فعلا لكانت ثمة نتائج أخرى . (٢) فالمغاربة في هذا الطور مقيدون بخيط حريرى ، وهم أحرار، ومطلقاء، بين حدود لا يجوز لهم أن يتعدّوها ؛ تلك هي رؤية الابطال : ادريس ولارة ومارية للموضوع . انه جيل الخيبة، أو جيل الظمأ بتعبير محمد عزيز الحبابي (٣) فكل شيء الى ضياع، حتى حلم ادريس في مدينة شعيب المؤمن الطاهر (٤) وقد انتهى هذا المؤمن للاستسلام لأى علم ينفع، أو آى شيخ يقود الى النجاة . (٥)

وقد اتضح - مما سبق - ان رواية " غربة " لا تضم حدثا عاديا يبدأ وينمو صعدا حتى الانتهاء، وانما هي غوص في لا شعور الاشخاص، ووعيهم الداخلي ، لاعطاء صورة عما يجيش في صفوف النخبة من المثقفين في المغرب، أولئك المثقفين الذين وجدوا أنفسهم على حافة القلق المدمر بين الماضي والحاضر، بين تنظيمات سياسية ذات رصيد شعبي ولكنها مستهلكة، وأخرى لا تبشر بانها صاحبة المستقبل ، بين مغرب يسير في طريق التجديد وآخر مستسلم للقديم المحافظ .

استكمال الرؤية في " اليتيم " :

ولا يتطلّب الأمر جهدا كبيرا حتى نكتشف أن رواية (اليتيم) هي ثنائية متممة لرواية غربة رغم صدورها بعدها بست سنوات . فالابطال هم أنفسهم ادريس، ومارية ولارة، مع ظهور شخصيتين جديدتين هما : جليل وحمدون . فمارية تبعث برسالة الى إدريس تخبره فيها انها ترغب بالعودة الى الوطن بعد هجرة دامت خمسة عشر عاما وتريد ان تراه أول ما تطأ الارض التى هجرتها غاضبة يائسة . (٦)

(١) المصدر السابق ص ١٠٩
(٢) المصدر السابق ص ١١٠
(٣) محمد عزيز الحبابي ، جيل الظمأ ، ط٢ الدار البيضاء، المغرب، ١٩٨٢ وانظر ما هو متعلق بها في هذه الرسالة ص ٩٠
(٤) العروى : غربة واليتيم (روايتان) ص ١١٨
(٥) المصدر السابق ص ١٢٠
(٦) العروى : غربة واليتيم (روايتان) : ص ١٣٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعند قدومها يرى ادريس فيها امرأة أخرى غير (مارية) المعهودة . ولكنها مع ذلك تذكره بالايام السوالف(١) ولا سيما النزهة في مدينة الهند قية، في الشتاء(٢). ويحاول ادريس أن يتخلص منها وأن يودّعها في الفندق لكنه يتردد في ذلك . فهو - على تقديره - لو فعل فسيبحث عنها في اليوم التالي ، وسيفكر لماذا رجعت للمغرب؟ وماذا تريد ؟ ." وسيتعلق بها ذهنه لأيام لا تحصى(٣) ولا يجد في غير مطعم الواحات مكانا يقضي فيه مايتبقى من الليل فيتوجه مع مارية الى هناك(٤) ويدور بينهما حديث سريع عن الماضي ، وعن سبب العودة ، فاذا بالهدف من عودتها انجاز بحث كلفها به أحد الاساتذة الجامعيين(٥) في أثناء ذلك يظهر عنصر جديد هو " جليل "، رجل الاعمال ، والمبادرات ، كان محاميا موظفا في الدولة ولكنه تحرر من الوظيفة لادارة أعماله ، ولديه بيت يشكو الفراغ ، فيدعوهما لقضاء الليلة هناك فيوافقان (٦)

وينشأ صراع عنيف في نفس ادريس، هل يعود للارتباط بمارية بعد فراق دام خمس عشرة سنة ، بما تعنيه هذه العودة من رجوع الى الماضي ، والتنازل عن التجارب في فنون " احتمال الحياة "؟(٧) لم يستطع ان يحزم أمره . وتسافر ماريـة الى بلدة " الصديقية " لاستكمال بحثها الذى جاءت من اجله ، وبعد أن تلوّح لـه بيدها مودعة تنثال على ذهنه الذكريات . . . ذكريات السفر : في باريس، وزنقة جاكوب، وقصر مدام جرمانى ، والمرأة المغربية التى كانت تستقبلهم في مطعم " الخيمة " (طامو) وأيام التلمذة ، وصداقة الطلاب الجامعيين .

في غمرة هذه الذكريات يقرر العودة الى مراكش . ويقصّ علينا - عبر منولوجه الداخلي - قصة حمدون ، الذى اغتنى الى أن اصبح ناظر مزرعة على النمط الانجليزى(٨) . ويلم بالاساليب الملتوية التى لجأ اليها للاقتران بالمرأة التى كانت من قبل زوجة أحد الجنرالات الفرنسيين ، ومن أحد شركاء باشا مراكش . ثم كيف استغل جهل مالكي البيوت

---

(١) المصدر السابق ص ١٣٨
(٢) المصدر السابق ص ص ١٤٠-١٤١
(٣) المصدر السابق ص ١٤٢
(٤) المصدر السابق ص ١٤٣
(٥) المصدر السابق ص ١٤٦
(٦) المصدر السابق ص ١٥٠
(٧) المصدر السابق ص ١٦١
(٨) المصدر السابق ص ص ١٩٨-١٩٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ووقعهم على عقود بيـــع ، وهم يظنونها عقود اجرة . (١)

أما حمدون فهو - بالمقابل - يحاول اقناع الا خرين ، ومنهم ادريس وماريـــة بأنه اغتنى لان الله - تعالى - اختصه بهذا الرزق (٢)

بعد الجولة التي تقوم بها مارية في (الصديقية) تعرض في تقريرها الوضـــع المأساوي الذي رأت البلدة فيه . ثم تلتقي ثانية بادريس في الفندق . ويتراجع ادريس عن موقفه السابق الذي عبر فيه عن رغبته بمفارقتها نهائيا ، وعرض عليها أن يصطحبهـــا في سيارته الى مراكش . وبالطبع توافق (٣) ولكنها تختفي فجأة . ويضطر الى ابـــلاغ البوليس الذي يلتمس أوصافها وقصة حياتها وظروف اختفائها وملابساته .

انها فتاة مغربية الاصل وأقامت بفرنسا ، ثم انتقلت منها الى الولايات المتحدة وعادت لاعداد بحث عن بلادها وظروف الناس العاديين ، ثم اختفت فجأة (٤)

ويبدو أن القصة تريد ان تقول : ان مارية التي رجعت الى الوطن بعد غياب استمر خمسة عشر عاما لم تجد فيه ما يسرها ، وما يشجعها على الاستقرار ، وترك المنفى ، لهذا ظلت الرغبة في الهرب والاحتجاج على الاوضاع قائمة في نفسها رغم هذه المدة الطويلة من الزمن .

وثمة اوجه شبه كثيرة بين روايات العروي "غربة" و "اليتيم" ورواية ادريـــس الصغير "الزمن المقيت" (٥) رغم الفرق الزمني الكبير بين صدورها وصدور الروايتين السابقتين . ففي البداية يشير المؤلف الى نمط الحياة الروتيني والى تغلغل الادارات وسيطرتها على الحياة العامة ، وتعدد أنواع الشرطة وتدخلهم في كل شيء : "فـــأي دائرة للشرطة تعني ؟ فالدوائر اصبحت كثيرة في زماننا هذا ، حتى ان دماغ المـــرء يتلولب في جمجمته وهو يبحث عن مقصده" (٦) ومع ذلك فان هذه الانواع مـــن

(١) المصدر السابق ص ١٩٩
(٢) العروي : غربة ، واليتيم (روايتان) ص ٢٠١
(٣) المصدر السابق ص ١٩٤
(٤) المصدر السابق ص ٢٠٢
(٥) ادريس الصغير : الزمن المقيت (رواية) ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٨٣ (ولم اعثر على مصدر يعرفنا بالكاتب الا انه معروف بنتاجه القصصي القصير .
(٦) المصدر السابق نفسه ص ١٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الشرطة لا تهتم بنشر الأمن فما اكثر الجرائم والحوادث لأن هذه الاجهزة لا هم لها سوى متابعة الوزراء للحفاظ عليهم ورصد انباء المطربين (١)

الـــز من المقيت لادريس الصغير :

واذا كان الأبطال في "غربة" و"اليتيم" لم يجدوا أيّ تغيير في البلاد بعد غياب دام خمسة اعوام أو خمسة عشر عاما فانّ البطل (الراوى) في "الزمن المقيت" يجد المدينة على هذا النحو من الثبات وعدم التغيير، فيسميها المدينة "الثلاجة" وقد حشيت بالدور والمقاهي ومراكز الشرطة والسجون والكتل البشرية، ويمكن أن يغيب عنها المواطن سنوات طوالا ليعود مطمئنا فيجد ان لا شيء تغير بتاتا، فيخال الزمان والارض - هنا - متوقفين لا يدوران (٢) ولعل وجه الشبه بين هذه الرواية وروايتي العروي يبدو واضحا عند تعليقه على التجاعيد التي بدأت تلوح في اسفل ذقن صاحبته ويقول في نفسه : "فعلا ، اننا بدأنا نشيخ قبل الاوان" (٣) وشيء آخر تشبه فيه هذه الرواية تينك الروايتين فمع ان شعيبا - البطل الثانوى - كان مناضلا وقام بعملية قادته الى اشكالات مع البوليس، فان البطل (الراوى) في هذه الرواية ذو سوابق سائلة ،فقد كان اعتقل ، وعمل لمدة سنتين بعد التخرج : "حميد ذو هذا البدوى القوى ، تعرفت عليه في سنتي عملي الاوليين ، قبل اعتقالي ، كان غريبا في المدينة" (٤)

ورغم خروجه من الاعتقال ، ورغم صك البراءة الذى حصل عليه من الشرطة ، الا أن مشكلته لم تسوّ فيجد "اربع سنوات من صدور البراءة في حقي لم تسو وضعيتي الادارية الى الآن" .

---

(١) المصدر نفسه ص ١٦
(٢) المصدر نفسه ص ٢٠
(٣) المصدر نفسه ص ٢٢ ، فهذه العبارة اختارها الناشر ليصف بها ادريس بطل الروايتين . انظر تعليق الناشر على الغلاف .
(٤) المصدر نفسه ص ٢٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثم يضيف إلى ذلك بطالة لمدة ثماني سنوات يعيش خلالها على فضلات عمته واحسان صديقه نعيمة، ولولاهما لكان الآن يشحذ كسرة خبز في الشوارع ".(١)

أزمة البطل المغربي :

ويشخص الكاتب ادريس الصغير ازمة البطل في روايته من خلال سعيه لمواجهة وضعه اللانساني . فهم يقولون له دائما : انت مواطن .. وتتمتع بكل الحقوق ... وسوف تسوى وضعيتك ، والمسألة لا تعدو أن تكون تطبيقا لسلم اداري يجري على الجميع ... ويستمر في مراسلاته الادارية .. وتطوافه على المكاتب وتحرير الشكايات والكل يستسهل قضيته ويقول له : انت لست مطرودا ولا موقوفا ولا محاكما ... حتى المجلس التأديبي اقرّ ببراءتك .. " اذن فأمرك هين ولا تتعجل تعيينك في منصب جديد ، فلست مسؤولا عن ذلك ".(٢)

وبرغم وضعيته المريرة هذه، فانه يستظهر ادبيات الحزب . ويحتدم النقاش بينه وبين صديقه حميد الذي يستظهر ادبيات حزب آخر مناقش . وتتحول الحكاية الى سخرية من الاحزاب " سنحصي عليهم التناقضات في المجال العملي ، والممارسات والمواقف ، وسنضيع بين التحلّل بالتكتيك والاستراتيجية .

"إن تقبلْ هذه الادبيات فانت صديق وان تناقشها فانت عدو ، ومن اراد الحوار فلينتم اولا ثم يناقش ".(٣)

هذه السخرية تلقي الاضواء على تفكك الحركة الوطنية المغربية بُعَيْد الاستقلال

وهذا الذي يحدث يجعل النادل - من الشخصيات الثانوية في الرواية - يندم لانه لم يهاجر الى فرنسا للعمل، فقد كان يصغي الى نصيحة أمه " قطران بلادي ولا

(١) المصدر نفسه ص ٢٨
(٢) المصدر نفسه ص ٢٨
(٣) المصدر نفسه ص ص ٢٨ - ٢٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عمل البلدان " وهو الان يتضور جوعا مع اسرته الضخمة . وأصبحت فرص العمل في الخارج ضئيلة وتحتاج الى وساطات (١) وليس الاعتقال ، والجوع ، والبطالة هي الامور الوحيدة التي تشغل الاشخاص ، فثمة همّ آخر وهو الحصول على جواز السفر . فحديث النادل عن السفر والوساطات ذكره بما يبحث عنه منذ مدّة " ملعون هذا النادل ، الا يكون قد اشتم شيئا من حديثي في يوم ما ، الا يكون مدركا أنني لا اجهد نفسي هذه الايام تائها بين المكاتب الا من أجل الحصول على جواز السفر".

وحرمان البطل من العمل ، والسفر ، أمور لا تكفي لبيان الاوضاع التي اصبح ينعم بها المواطنون بعد ان رحل المستعمر ، وقامت الحكومات الوطنية على أنقاض الحركة الحزبية المفككة ، والاستقلال الهشّ . فلا بد من ابراز الوجه القمعي الذي حل محلّ المستعمر الاجنبي ، وصديق (الراوي) حسن يخاطبه بعد وجبة عقاب شديدة قائلا : ان عادوا غدا الى ضربنا فتماسك مثل اليوم ، واياك أن تبكي ، يجب أن نقنع هؤلاء الزناة بأننا اصبحنا رجالا ، واننا نستحق التكريم بدل الضرب والصفع . ان هؤلاء الذين يصفعوننا لا يعرفون كتابة اسمائهم إنهم خردة من الجهلة ، والبلداء ، لذلك لن نضعف أمامهم " . (٢) وفي نظر القاص لم يبق شيء للأجيال الجديدة تتحدث به غير ذكريات القمع والسجون . او تتحدث في التفاهات والمخدرات والغيبوبة الدائمة (٤) ، انه جيل القلق أو الظمأ كما يذكر الحبابي في روايته . هذا الجيل الذي عانى من فترة المخاض العسير سعيا للإستقلال : " سيرحل جند الاحتلال الى غير رجعة ، ولن نخافهم بعد الآن " (٥) " وعند الاستقلال خرجنا نلوّح بالرايات ، كانت الفرحة تغمر قلوبنا ، والدموع تنهمر من العيون " . (٦) وبعد الاستقلال تبدّد الحُلُم واستحال الى كابوس . " في اليوم الواحد تسقط آلاف الضحايا بين أنياب مصاصي الدماء ، والشرهين لعروق البشر في اليوم الواحد تحدث آلاف المآسي " . (٧)

---

(١) المصدر السابق نفسه ص ص ٣٤-٣٥
(٢) المصدر السابق نفسه ص ٣٥
(٣) المصدر السابق ... ص ٤١
(٤) المصدر السابق ص ٤٧
(٥) المصدر السابق ص ٦١
(٦) المصدر السابق ص ٦١
(٧) المصدر السابق ص ٧٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولم يعد ابناء هذا الجيل يحلمون بالبيت المريح ، والسكن النظيف ، أو العمل ، وانما يطمعون في أن يعيشوا أى حياة . " هل تعلمين انني هنا عاجز عن تحقيق رغبة بسيطة متواضعة ، انني لا اطمح في اكتساب الحارات والضيعات والمعامل ، أريد - فقط - ان أعيش حياة حقيقية . . حياة تنبض "

تقويم الاوضاع في رواية "الابله والمنسية وياسمين" :

وتطرح رواية " الابله والمنسية وياسمين (١) للميلودى شغموم مشكلة الاوضاع الاجتماعية والسياسية في المغرب بعد الاستقلال عبر معالجة فنية بسيطة ترتكز على اختراع نموذج معادل للأحداث التاريخية . وعبر ثلاثة رموز احدها يرمز لفئة اجتماعية محددة ، واحدها يرمز للحلم الضائع .

وفي بدء الرواية نلاحظ اضطراب النص بين استلهام الموروث القصصي عبر اللغة والاسلوب ، واستلهام الفن الروائي ذى التركيب الحديث ، عبر تحليل الاحداث والشخوص . فالجدة تقوم مقام (الراوى) والبطل الذى يسرد القصة هو المستمع الذى ينقل عن الراوى ما سمع . والحكاية التي تاه فيها اهل العلم والفضل والبيان ، ولم يستطع الباحث عن الحقيقة ان يقع على رواية موثقة لها الا لدن الجدة ، هذه الحكاية تتعلق بقرية صغيرة - عرفنا اسمها " المنسية " كانت تعيش آمنة مطمئنة رغم فقرها المدقع " متماسكة رغم خلافاتها ، حية رغم موتها ، سعيدة رغم شقائها ، يعيش اهلها على الغابة ورعاية الماشية ، ويفلحون سهلها ، وذات يوم حطت شاحنات وسيارات بالقرب من القرية ، ونزل منها رجال وسلاح كثير ، ونصبت خيام وخنادق وظن أهل القرية أنّ الحروب الصّليبية ما زالت مستمرة " . (٢)

---

(١) الميلودى شغموم : الابله والمنسية وياسمين ، المؤسسه العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٨٢ . والخاص من مواليد (بن احمد) له مجموعة قصصية بعنوان " اشياء تتحرك "

(٢) المصدر نفسه ص ص ٩ - ١٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بعد ذلك نكتشف أنّ مايومئ اليه الكاتب هو قدوم الاستعمار الى المغرب، ومجيء الرجل الابيض (المستعمر) وابادة الرجال والنساء والاطفال ممن تصدّوا لهذه الفئة بالعصيّ والحجارة والسّيوف والخناجر والرماح . ولم ينج من تلك المجزرة الا "أولئك الذين اكتشفوا - بعد فوات الاوان - أن الاختفاء أو الهرب احسن واجدى من المجابهة" .(١)

ومن هؤلاء شاب يطلق عليه لقب "الابله" وسيكون له شأن كبير في الرواية والتأثير على الاحداث . فهو ابن التاجر الوحيد في القرية ولكنه لم يتعلم التجارة . فعاش متبطّلا خاملا لا يحسن أيّ شيء . ويختفي هذا الابله في ظرف غامض يجعل اهالي القرية يصلّون عليه صلاة الغائب . ثم يعود الى القرية في ظرف غامض ايضا ومفاجيء .(٢) ولكنه يعود ببذلة اوروبية، وربطة عنق، وصلعة صغيرة تلمع، وكرش مدوّرة تفسح امامهُ الطريق، وفي صحبته الرجل الابيض والمرأة الشقراء التي تشبه حورية من الجن . واذا به يجمع الناس ويطلب منهم أن يبنوا للثلاثة بيتا مقابل الهدايا الكثيرة التي سيغدقونها على الجميع .(٣)

وبعد اتمام البناء، وتوزيع الهدايا، وكانت بالفعل هدايا ثمينة يشرع الابله في مراقبة الاهالي وهم يغنون ويرقصون . ويقول في نفسه : "كل القرية تلعب لعبة الابله مكاني . وها أنا اتسلى بحماقاتهم بعد ان كانوا يتسلون بحماقاتي"(٤) . وينال رضا الابيض والمرأة الشقراء التي تقول : "سنحقق بفضلك كل ما نريد في هذه القرية البدائية، وسندخل اليها الحضارة" .(٥) ويرصد الكاتب في المشاهد اللاّحقة ما يحدث من تغيير على القرية، وكيف بدأت تسير على النظام الاستهلاكي الغربي . افتتاح محلات لبيع الخمور، والحلويات المحشوة بالمخدرات، وانتشار الوسطاء والسماسرة ... الخ . وتتضخم القرية وتتسع عن طريق هجرة البدو والفلاحين اليها، ويتحول المال من شيء ثانوي الى شيء اساسي تقوم عليه الحياة . ولأن المال

---

(١) الميلودي شغموم : الابله والمنسيه وياسمين ص ١٠
(٢) المصدر السابق : ص ١١
(٣) المصدر السابق : ص ١٤
(٤) المصدر السابق ص ص ١٢-١٣
(٥) المصدر السابق ص ١٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بيد الابله سيد الموقف فإنه اذا مشى تمشى معه القرية، واذا ظهر ولاح تقف من اجله اجلالا واحتراما . (١)

وبعد أن يستتبّ الامر للأبله، وشريكه الابيض، يشرع في فتح الطرق، ومد السكك الحديدية، واقامة السدود، واستثمار الاراضي (٢) ويشرع في انشاء شرطته كما ينشيء محكمة ويؤسس بنكا وخزينة ويصير له موظفوه، ويصير له جواسيس وعيون وآذان (٣) ويضرب على القرية ستارا من العزلة، فيشدد الرقابة على الحدود وينشيء جيشا لصد الوافدين، ويوما عن يوم تتوطد سلطة (الابله) كما تزداد القرية قوة وغنى . وتتعدد المناسبات التي تقام منها الافراح والليالي الملاح . (٤)

وعلى هذا النحو يستمر الكاتب في رصد الاحداث واطلاق الاشارات التي توحي بان ما يجرى على مستوى السرد يعادله شيء آخر في المستوى التاريخي . وتقع حوادث نكتشف من خلالها ان (الابله) في حقيقة امره لا شيء . والابيض هو الذي يخطط لكل شيء . والابله يطبق ما يامره به الابيض فقط . واحيانا بشكل سيء يغضب الابيض (٥) . بل ان الابله يقوم بدور الزوج مع الشقراء تلبية لامر الابيض ويصبح الثلاثة اسرة واحدة ينامون في سرير واحد نوما هادئا بعيدا عن اعين الرقباء والفضوليين . (٦)

على ان موت السيدة الشقراء المفاجيء يفجّر الموقف وتدور احداث كثيرة وشائعات غريبة حول علاقة الابله بالابيض، وعلاقة الابله بالمربيّة الشقراء، والزوجة الفقيدة . ويحاول اهل القرية تقويم الابله، ويصلون عبر الثرثرة والمجادلات التي

(١) المصدر السابق ص ١٤
(٢) المصدر السابق ص ١٤
(٣) المصدر السابق ص ص ١٤-١٥
(٤) المصدر السابق ص ١٥
(٥) المصدر السابق ص ١٧
(٦) المصدر السابق ص ١٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

انه واحد من أربعة : فاما ان يكون الابله الخامل الذى عرفوه سابقا ، أو الابلسه الذى نجا من الموت دون ان يحارب ، او الابله (اللّوطي) الذى جمع الثروة والجاه بواسطة عضو من أعضاء جسده . أو الابله الذى يرعى مصالح سيده لا أكثر . (١)

ولا نقاذ الوضع ، وتهديد الشائعات يقرر الابيض ان يتزوج الابله من احدى الفتيات في القرية ، فينفذ الابله القرار دون مناقشة ، ويتزوج من فتاة عانس تجمع بين عدد من المعاهات كالحول والخرس وكره الرجال (٢) . ويتزوج الابيض نفسه بفتاة من هذا النوع . (٣) ويدخل طرف ثالث جديد في حياة الرجلين وهو " المُتَسوّل " الذى نكتشف فيما بعد أنه جدُّ الراوى . ورغم ان هذا المتسوّل لم يعرفه الابيض او الابله الا انه بعد ان يهمس في آذانهما يستقبلانه بالقبل والاحضان ويتضح للجميع أنّ في الأمر سرا . (٤)

وتتضاعف الحيرة امام هذا السر عندما يشيد الابيض والابله للمتسول قصرا جديدا ، ويزوجانه من المعلمة الشقراء . كما يكتشف الاهالي ان المتسول رجل يحب المشاكل ، ولا يستطيع العيش دون ان يثيرها على الرغم من أنه يخرج بريئا منها كل البراءة . (٥) ورغم ان هذه المشكلات كانت تجرّ على شركة " الابيض والابله " الخسائر الا انهما لم يستطيعا التّخلّص منه ابدا ، الامر الذى يجعل الناس يفترضون شيطانا مريبا في الامر . (٦) وتكبر هذه الافتراضات بعد ان ينجح المتسول في ارغام الابله والابيض على تقديم الثلث مما يملكانه من الماشية والارض والحوانيت . . .

وسرعان ما اصبحت لدى المتسول الاجهزة التى يسيطر عليها الأبيض والابله: الشرطة ، والعيون ، والعمّال ، ونساء القصر . . . ويظل السؤال يتردد : " من اين يستمد المتسوّل كل هذه القوة ؟ (٧) ثم يفاجيء المتسول الأهالي

---

(١) المصدر نفسه السابق ص ٢٢
(٢) المصدر السابق ص ٢٤
(٣) المصدر السابق ص ص ٢٥-٢٦
(٤) المصدر السابق ص ص ٢٨ - ٢٩
(٥) المصدر السابق ص ٣٠
(٦) المصدر السابق ص ٣١
(٧) المصدر السابق ص ٣٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والرجلين الكبيرين بمجموعة من الاجراءات : فقد رفع اجور العاملين في معامله مما جعل الابيض والابله يتخذان اجراءا مماثلا ، ولكنهما يرفعان اسعار المواد الغذائية لتعويض الاجور المدفوعة : "فالعهد وما ملك ملك لسيده شريطة ان تعطيه باليمنى ما "انت آخذه منه باليسرى" . (١)

ويغيظهما ان الابله لم يزد في اثمان المواد والسلع الاستهلاكية،بل أمر بزيادة على الأجور مع تشديد الرقابة على الاثمان . مما يجعل عمّال الابيض والأبله ينظرون اليه وكأنه الخلاص . (٢)

وتشتد المضاربة بين الفريقين ، فالمتسول اصبح محبوبا من الناس . فاضطرا لرفع الاجور وتخفيض الاسعار (٣) . وفاجأهما باجراءات جديدة فقد تنازل عن ممتلكاته الخاصة وجعلها ملكا لجميع انصاره ، فاشعل بذلك نار الفتنة التي كانت ضحيتها الاولى زوجته الشقراء واولاده الاربعة الذين وجدهم مذبوحين من الوريد للوريد . وقد وضعت بينهم لافتة كتب عليها : "هذا جزاء من اراد ان يتمرد ، انّا كذلك نجزي المخطئين التائهين" . (٤)

وعلى هذا النحو يشتد الصراع الداخلي وتمتد التصفيات لتشمل زوجة الابيض وزوجة الأبله .(٥) وعندما تشتعل الحرب الاهلية وتتزايد القلاقل والفتن يحسم الابيض متاعه وثرواته النقدية ويغادر القرية عائدا الى بلاده .(٦)

وحين تنتصر جماعة المتسول وتذهب للبحث عنه تجده في ملهى يشرب الخمر ، ويلعب الورق بصور عديدة تجمع بين المتسوّل والأبله والابيض وبعض الجنود الاجانب فاكتشف المنتصرون سر العلاقة التي تجمع هذا الثالوث . (٧) ويعترف المتسوّل

(١) المصدر السابق ص ٣٣
(٢) المصدر السابق ص ٣٤
(٣) المصدر السابق ص ٣٦
(٤) المصدر السابق ص ٣٧
(٥) المصدر السابق ص ٣٨
(٦) المصدر السابق ص ٣٩
(٧) المصدر السابق ص ٤٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بالدور الذى لعبه مع الابله والابيض في تنفيذ مخططات الاجانب . وبالخدمات الكبيرة التى قدمها لعساكر المستعمر مستغلا معرفته بالبلد وأهله وشعابه ولغته . ويظل الصراع قائما بين الأبله والمتسول .

وتلخص الجدّة الموقف قائلة : " ها انت ذا ترى يا ولدى ان الابله ولد الحرام وأن المتسول ولد الحرام ، وأن الابيض ولد الحرام ، وأن اولاد الحرام يقتتلون من أجل المال والجاه ولكن اولاد الحلال هم الذين يؤدون الثمن " . (١)

وعندما تموت الجدة بعد أن أكملت الحكاية يقوم الجد باعطاء الراوى بعض الهوامش والتوضيحات . فالرجل الابيض ما هو الا رجل اجنبي يشبه الديك الاصطناعي يعرف لغة البلاد ، ويعرف تاريخها ، وعاداتها ، ويحفظ القرآن والحديث ، بالاضافة الى الانجيل والتوراة ، ويبشر بالاحلام التى ستتحقق ، والرخاء الذى سيعم الارض ، مع الفرنسيس الذين سيأتونهم بالعدالة والاخوة والحرية والمساواة (٢)

ويطوف الرجل الابيض ليبعث دعواه في كل قرية من القرى أسوة بقرية المنسيلة . ثم يصف الكاتب على لسان الجد العريس صورا من الخداع الذى استخدمه المستعمرون للسيطرة على البلاد ، وللسيطرة على العقول بعد ان تم اخضاع الابدان ، واستخدام الدين وسيلة لتحقيق هذا الغرض . وكيف اصبح الاجنبي (النصراني) وليا من أولياء الله الصالحين في نظر الاهالي . ثم يصف اساليبه المتقدمة في اصلاح الاراضي وتحويل مجارى الاودية ، وبناء السدود ، وحث الناس على العمل والكد من اجل أن يستثمر حبّ الناس له . (٤)

---

(١) المصدر السابق ص ٤٠
(٢) المصدر السابق ص ٥١
(٣) المصدر السابق : ص ٥٣
(٤) المصدر السابق ص ٥٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

طـور آخـر في الحكايـة :

وفي القسم الثاني من الكتاب يبدأ الجد برواية حكاية الابله فهو الابن الوحيد للتاجر الوحيد في القرية الذى لم يكن يحرث أرضه بنفسه ، والوحيد الذى لا تذهب زوجته لتعمل في الارض كبقيه نساء القرية . (١) ولكنه لم ينشأ كابيه تاجرا وانما كان عاطلا لا يعرف التجارة ولا يعرف الفلاحة في الارض (٢) ثم نشأت بين الابله والابيض علاقة غريبة اذ راح الاخير يربّى الأول تربية غريبة ، ولكنه وجد في الابله رجلا يفكر ويتفلسف ، ويشرح له تأملاته في الحياة والكون واحساسه العميق بالغربة مع الاهالي . ويعقد الرجلان اتفاق شراكة على التصرف بالاهالي والقرية وفق ما يؤدى لمصلحة الاثنين .(٣)

ويواصل الجد سرد التفاصيل الصغيرة التى تبدو توضيحا وشرحا لما سبق أن جاء على لسان الجدّة : المشاريع الاستثمارية ، بناء السدود ، انشاء الملاهي والماخورات ، وتنظيم الضرائب ، واستغلال السكان ، وجنود للحماية . . . (٤) أنشأها الأبيض . وانشاء البنك ، ثم ارتقاء (الابله) واضفاء هالة من القداسة عليه الى درجة الادعاء بالالوهية . (٥) ثم اختفاؤه في قصره ، وتعيين قائد لقوات الحماية والأمن ليبسط سلطانه على البلدة . . . وتحصيل الضرائب ورعاية شؤون الحياة الدنيوية العامة . (٦)

ويذهب الجد في رواية الحكاية الى القول : ان المتسوّل هو الشخص الوحيد الذى لم تنطل عليه ادعاءات الابله بالربوبية ، ولهذا فهو الشخص الوحيد - من الاهالي - الذى كان يستطيع ان يفسد لعبة الابله والابيض . (٧)

ويستغل (المتسوّل) الظروف التى آلت اليها القرية . وتتلخص هذه الظروف

---

(١) المصدر السابق ص٨٥
(٢) المصدر السابق ص٥٩
(٣) المصدر السابق : ص ص ٦٠-٦٥
(٤) المصدر السابق : ص ص ٨٢-٨٣
(٥) المصدر السابق : ص ص ٨٤-٨٥
(٦) المصدر السابق : ص ص ٨٥
(٧) المصدر السابق : ص ٨٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بالعبارات التالية المأخوذة من فقره واحدة : " الديون تراكمت على السكّيمان ، والضرائب متعددة ، والضرائب مرتفعة ، وأثمان المعيشة تقفز بسرعة جنونية ، والارض صغيرة ، والماشية قليلة ، والعمل لم يعد كافيا ، لا لسد نفقات العيش ولا لتسديد الضرائب .

وقوات الحماية العامّة لا تترك أحداً يتكلم او يتحرك . والأبله لم يعد يسمع ولا يرى ، والويل لمن اشتكى أو انتقد أو نصح " . (١)

تفكيك الرموز من النّص :

بعد ذلك نكتشف ان المتسول يرمز لرجال المقاومة الوطنية الذين حاولوا العمل ضد الابله والابيض . وأن جد الراوى هو المتسول الذى فشى بسرّة فمات في الحال تاركا حفيدهُ يتخبّط في حمأة الحيرة والقلق . وهو يطرح على نفسه السؤال : حكت جدتي حكاية المنسية والابله فماتت ، وحكى جدى حكاية الابليه والمنسيّة فمات ، فهل يموت كل من يحكي هذه الحكاية ؟ . (٢)

واذا كان الكتاب الاول من الرواية يدور حول الابيض ، والثاني يدور حول الابله ، فان الكتاب الثالث يدور حول ياسمين . والمنسية قرية تقع على بعد (٩٠) كيلومترا شرق العاصمة . وقد عرفت بأسماء كثيرة غير أن الاسم الذى عرفت به اكثر من غيره هو اسم " المنسية " ولعل الكاتب يرمز بهذه القرية في المغرب ، وبهذا الاسم الى أن موقعها على هامش اهتمامات الحكومة واهتمامات المؤرخين . سواء في عهد الابيض أو الابله ؛ فالمرء يلاحظ ان في القرية مقبرة تبلغ مساحتها اربعة اضعاف المساحة التى تقوم عليها الابنية والشوارع .

---

(١) المصدر السابق ، ص ٨٨ .
(٢) المصدر السابق ، ص ص ٩٢ - ٩٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رحلة البحث عن الواقع المهمّش والسّخرية :

ويشرع الراوى (البطل) بالبحث عن المنسيّة، والسبب بالطبع أنه تلقى رسائل غرامية من فتاة تسمى " ياسمين" مقيمة في " المنسية، شارع الاله رقم (٥)، وينتهي به البحث الى مجموعة من الخرائب والانقاض، والى سكان جُلّهم من المعاقين في العقول والأبدان، أما ياسمين فانها امرأة عجوز تعاني من كل العاهات، ولم يسبق لها أن أرسلت رسالة لأحد، لقد كانت الخيبة مرّة في ختام رحلة البحث عن المنسية في الزمان والمكان .

لقد كتب الميلودى شغموم (وهو كاتب قصة قصيرة في الاصل)[1] رواية صغيرة الحجم ولكنها كبيرة بما تحمله من دلالات وبما تفصح عنه من نضج في الشكل والمحتوى .

فلقد قسم المؤلف روايته في ثلاثة كتب . واتبع في سرده اسلوبا يذكّرنا باساليب العربية لدى ابرز كتابها من قدماء ومحدثين . وتراوح فيها بين اسلوب القصّ العصي واسلوب الحكايات والمقامات الموروثة . وجعل من الاشخاص رموزا وكائنات حية تنبض بحرارة الدم واللحم وتهتز تحت المشاعر العنيفة والاحاسيس القوية المدمرة . واستطاع عبر هذا التجريب ان يطرح بطلا (اشكاليا) لا يفهم العالم ولا يجد فيه المنطق . فيبحث ويتحرى طامعا بلذة المعرفة وثمرة البحث مذكرا بأبطال الخرافات والحكايات الشعبية الذين يجتازون العقبة بعد الاخرى طمعا في العثور على شيء . ولكن الخيبة تكون النهاية الفاشة لرحلة البحث عن الحقيقة .

هذه القصة ترسم اجواء الحماية، واجواء الكفاح من أجل الاستقلال، واجواء الاستقلال وما تلاه، في قالب هزلي ساخر، ولكنه لا يفتقر الى جدّية الطّرح وجدّية المعالجة والبحث، وجدية التجريب، لحل الكثير من مشكلات التقنية الروائية الجديدة .

---

(١) صدرت له مجموعة قصصية بعنوان : اشياء تتحرك، ولة رواية بالفرنسية، وديوان ينتظر زمان الطبع، والنسخة التي لدى من المجموعة القصصية لم يذكر عليها الطابع ولا التاريخ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فأي اختلاف نجده بين ما طرحه العروي في روايته أو الحبابي في جيل الظمأ أو ادريس الصغير في " الزمن المقيت " أو غيره وغيره . . .

رحيل البحر للتازي :

ويعكف محمد عز الدين التازي في روايته " رحيل البحر " (١) على تصوير الأجواء التي تخيّم على المغرب في مطلع الثمانينات . وهي اجواء الصراع الايديولوجي المحموم بين قطاعات المثقّفين والملتزمين السياسيين مع تصوير الوضع الاجتماعي والمعيشي لجماهير الفقراء والطبقات المسحوقة . (٢) ولعله يضع المسؤولية في تردي الاوضاع الاجتماعية على اليمين الانتهازي الذي وحّد اجنحة الاستغلال ونفى ما بينهما من فوارق والهدف المشترك هو مواصلة الاستغلال، كما يضع اللوم ايضا على المراهقة اليسارية المتمثلة في الصراعات الشديدة وعدم الانسجام، وفي نظره أنّ اليسار غير منسجم ولهذا يتسلل اليه الاعداء، وهو يدعو على لسان " هرون " الى عدم السماح لأولئك الاعداء بالتغلغل في الحزب . (٣) ولا ينفي النّظام القائم من اللوم فالوضع الحالي وضع ناري ، والشرطة تلاحق المناضلين . (٤)

ورغم ان رواية التازي ليست كالروايات العادية من حيث انها ليست رواية احداث ولا أشخاص وانما هي سلسلة من المشاهدات والمشاهد الشعرية والتأملات والحوارات القصيرة الا انها تنطوي على لمعات توحي احيانا بموقف تاريخي محدّد . فالكاتب يشير في احدى اللقطات لاحداث ١٩٨١ التي شهدتها الدار البيضاء .

" قال محمد العربي :

- خرجت التماسيح الى الشوارع .

- تجمّع حولهُ الاصدقاء وأكمل :

---

(١) محمد عز الدين التازي : رحيل البحر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٣ . ولم أعثر على مصدر يعرف به، وله مجموعة قصصية : " اوصال الشجر المقطوعة " ومجموعة اخرى بعنوان : " النداء بالاسماء " .

(٢) انظر : ص ٩٣ وص ١٥١ وما بعدها .

(٣) المصدر نفسه ص ١٥١

(٤) المصدر نفسه ص ١٥٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- احرقت البنوك والمتاجر والحافلات، مظاهرات صاخبة احتجاجا على الزيادة في الاسعار .(١)

ثم يصف عبر الحوار الذى يستمر في صفحات عديدة قمع السلطة للمتظاهرين، واستخدام الذخيرة الحية، وطائرات الهليكوبتر، واصابة المئات في حين يعكف احد أفراد الحزب على دراسة النتائج .. اما لماذا أحرقت البنوك والشركات والسيارات فلأنها ترمز الى رأس المال، والى الاستغلال، والفتنة"(٢) ويلخص رأيه فيما حدث بقوله : " انها حرب طبقية "(٣)

وثمة صلة مشتركة بين رواية "رحيل البحر" للتازى ورواية الابله والمنسية وياسمين للميلودى . فكلاهما يحاول ان يتكئ على التاريخ ونماذجه وأساطيره في ربط الحاضر بالماضي، وايجاد عناصر متشابكة بين النص ونصوص أخرى من التاريخ، لا على صعيد الفكر والمضمون، بل على صعيد اللغة والاسلوب ايضا . ونحن نجد القاص في "رحيل البحر" يشير الى مدينة "اصيلا" دون أن يذكر اسمها بنصوص ينقلها عن كتب "البكرى" و "الناصرى" وغيرهما من المؤرخين القدمين، وهو من خلال هذه النصوص يريد ان يعرّى الحاضر الذى اذا قورن بالماضي - رغم امتلاء الماضي بصور القهر والقمع والاضطراب والفتن - فانه يبدو حاضرا تعسا بائسا شاهدا على الهزيمة، لا في ظل الحماية والاستعمار الغربي، بل حتى في ظل الاستقلال وهيمنة القوى المستغلة .

---

(١) التازى : رحيل البحر، ص ١٨٦
(٢) المصدر نفسه ص ١٨٧
(٣) المصدر نفسه ص ص ١٨٧- ١٨٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في الطفولـــة لعبد المجيـــد بن جلـــون :

تسلط رواية عبد المجيد بن جلون " في الطفولة " (١) الأضواء على علاقـــة المغرب بأوروبا خلال الفترة التي تلت الحرب العالمية الاولى . فالقاص الذى يتذكـر طفولته في انجلترا لحظة بلحظة لا يذكر من بلاده سوى الام والهجرة من هناك الـــى منشستر . ولايكاد يذكر من ملامح الدمار الذى تركته الحرب هناك اى شيء (٢) .

وتتلخص ذكرياته في منشستر بذكرى البيت القديم ذى الاشجار العاليـــــة والحديقة المهملة ، والاخت الصغيرة . والصلة التي نشأت بين الاسرة و(آل باترنوس) المجاورين . (٣) كما يذكر موت السترباترنوس وكانت تلك الذكرى اول عهد بكلمـــة " الموت " (٤) . وتموت الوالدة في منشستر ايضا . وكان الاهل يودّون اخفاء خبـر الوفاة لولا ان فتاة من آل باترنوس همست في أذنه قائلة له " انهم يضللونك . لقـــد ماتت أمك المسكينة " (٥) . ويذكر البيت الجديد الذى انتقلت اليه الاسرة بعـــد وفاة الوالدة . وهو بيت صغير الغرف حديث الاثاث ، ذو حديقة صغيرة تخلو مـــا كان في حديقة البيت السابق من الرهبة والوحشة والخوف (٦) . وكان يقع هـــذا البيت في شارع " البارك فيلد " (٦) .

ويصف جوانب من طفولته في منشستر ، فقد كان يتردد الى المسرح بصحبـة ميللي ابنة باترنوس ، ولكنه لم يكن يتجاوب مع الكوميدى منه تجاوب اصحابه الذين معه وكان يختلف الى الحدائق العامّة ويقابل اصنافاً متعددة من البشر (٧) .

ويبدو حرص الكاتب على تصوير الفروق بين عالمين : انجلترا والمغرب ، كبيرا في أثناء وصفه للبيوت ، وما تمتاز به من تصميم داخلي ، وما تختلف فيه من ضروب ،

---

(١) عبد المجيد بن جلون : في الطفولة (رواية) منشورات دار المعارف الرباط التاريخ لم يذكره ط الثانية والمؤلف من مواليد فاس ١٩١٨ له مجموعة قصصية (وأدى الدماء) وديوان شعر بعنوان (توفي ١٩٧٩ .

(٢) المصدر نفسه ص ٦

(٣) المصدر نفسه ص ٨

(٤) المصدر نفسه ص ٩

(٥) المصدر نفسه ص ١٥

(٦) المصدر نفسه ص ١٩

(٧) المصدر نفسه : ص ٢٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التصميم والزخرف(١) ، أو في وصفه للعادات والتقاليد المرعية في أثناء الزيارة(٢) . ورغم الصفحات الكثيرة ، والذكريات الجمة ، التي اتى عليها ابن جلون في روايته - الاعترافات - الا أنه لم يتطرق لاى شأن سياسى ، أو أى شئ عام ، خلا ذكره عن الملك جورج الخامس ، حين مر في الشارع الذى يسكنون فيه "بارك فيلد" مستعيدا ذكريات ذلك اليوم وما تملكه فيه من شعور خاص (٣) .

ومن باب المقارنة بين الحياتين يشير القاص الى طريقة دخوله المدرسة في منشستر ، فهو يقول : ان رجلا شرطيا دق الباب ذات يوم سائلا : اليس لديكم طفل قد بلغ سن الدراسة ومع ذلك لم يلتحق بها الى الان ؟ . . فهل هو مريض؟ وتجيب الام (زوجة الاب) لا يا سيدى الشرطي ، انه في تمام العافية . ويسأل الشرطى هل والده موجود فأكلمه ؟ . . فتجيب: لا ، لقد خرج الى عمله فيقول : اذن فأخبريه يا سيدتي انه لا بد من أخذه الى احدى المدارس غدا في الصباح (٤) . وحين يسافر الطفل "عبد المجيد" من انجلترا الى بلاده على متن احدى السفن نجد صورة طريفة للمقابلة بين المدينتين . وحين يلتقي عمّه وجده في فاس ، ويقارن بين ما يراه من الناس بمن عرفهم في منشستر ، ومقارنة اللغة التى يتحدثون بها بما عرف يكون احساسه بالغربة كبيرا ، واحساسه بالدّهشة عظيما جدّا . (٥)

يكتشف "عبد المجيد" بلاده فجأة . واذا الحنين الذى كان يملأ جوانح الام ليس مجرد حنين عادى كذلك الذى يشعر به كل انسان تجاه مسقط رأسه . وحين حل بها وذاق ملذاتها ، واستمتع بما فيها من اطايب أحسّ بأنّ العالم الحي هو مراكش ، وان مراكش هي العالم الحي (٦) .

---

(١) المصدر السابق نفسه ص ٢٨
(٢) انظر وصفه لزوار البيت من المغاربة مثلا ص ٣٦
(٣) المصدر نفسه ص ٦٣
(٤) المصدر نفسه ص ٦٩
(٥) انظر المصدر نفسه السابق ص ص ١٠٢-١٠٤ وانظر كذلك الصفحات ١١٦-١٢١ وانظر ص ص ١٥١-١٥٣
(٦) المصدر نفسه ص ١١٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهكذا يستمر احساس الكاتب بأهمية المقابلة بين العالمين يلح عليه الى أن يشمل فيه كل ناحية : الكتّاب ، والمدرسة العصرية ، واللغة الفرنسية المستحدثة عليه ، والعربية . وأساليب التدريس (١) وعلى هذا النحو تستمر الرواية بالانطلاق من عالم ذاتي خاص نحو عالم قطري منغلق على ذاته دون أن يمس الاحداث العامة (٢)

وعلى الرغم من أن أحداث الرواية تشمل الفترة التي تفصل بين الحرب الاولى والاستقلال الا أن صاحب "الاعترافات" لم يشأ ان يتطرق لما يخرج عن دائرته الفردية وعلاقاته الاسرية وحبه وكرهه وذكرياته الخاصة فالا ما كان منها متعلقا بمشاهدته للسلطان محمد الخامس في اثناء نزهة مع الصحاب في منتجع سياحي (٣) . والا ما كان من اشارة الى بعض زملاء الدراسة من المبعوثين كعبد الكريم غلاب ، وبن مليح ... ما عدا ذلك لا يزيد عن وقوفه امام الوليع بكرة القدم ، وحكاية حب عابرة لم تؤثر كثيرا في الاحداث . ووفاة العم والجد والاخت الصغيرة . واذا شئنا ان نقارن "في الطفولة" مع "الايام"، لطه حسين لالفينا الاخير يعطي النواحي العامه قدرا كبيرا من الاهتمام لم يعن جلون فقد اغفل ذلك كثيرا رغم ما يبدو من الحرص على اعتبار كتاب الأيام نموذجه الذي يقلده .

---

(١) المصدر نفسه ص ص ١٥٥ - ١٥٦

(٢) باستثناء الاشارة العابرة لما لاقاه من تقريع على يد الشرطة الفرنسية في اثناء مروره بالجزائر الى مصر ، انظر ص ١٧٥

(٣) انظر المصدر نفسه ص ص ٢٦٦ - ٢٦٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخبز الحافي والنموذج المتمرد :

ان الانتقال من رواية عبد المجيد بن جلون ، أو سيرته الذاتية بكلمة أدق ، الى رواية محمد شكرى : "الخبز الحافي" (١) تماثل الانتقال من عالم بدوى عفوى بسيط وطاهر الى عالم تملأوه مفاسد الحياة الحديثة ، وتسكنه مشكلات الجوع ، والقهر والكبت والقلق المدمر الذى يحمل البطل - الانسان - على التمرد ، ويغمره بمشاعر الاحباط والاغتراب . كما أن هذه النقلة تبرز الفرق الكبير بين كاتب السيرة الذاتية حين يحاول ان يكون صادقا الصدق الموضوعي مع الناس والاخرين فيبدو كما لو أنه مؤرخ ، يعنى بذكر اليوم والشهر والسنة ولا يتجاوز الشيء الظاهر الى ما وراءه والكاتب الذى يمزج الخيال بالواقع ، ويحلل الاشياء ليكشف عن خباياها ومكنوناتها الباطنية .

يستهل القاص محمد شكرى سيرته الذاتية "الخبز الحافي" بالحديث عن أيام الجوع ، والقحط فى الريف ، وعن مشاكل الاسرة ، التى تتلخص فى افلاس حقيقى وكامل ، وأب وحشيّ قاس ، وظروف سكنية ضاغطة : "لنا حجرة واحدة تضم الام والأولاد ، احيانا كنت انام فى المكان الذى اقرفص فيه" . (٢) ثم تتمخض حالة الجوع عن جريمة نكراء ، فالاب القاسى يقتل ابنه الطفل الذى يصرخ ويتلوى من مطالب الشغب .

وتتحوّل هذه الجريمة الى كابوس يظل يلاحق البطل "تذكرت كيف لوى ابى عنق اخى . كدت اصرخ . أبي لم يكن يحبه . هو الذى قتله نعم . قتله (٣)

ويؤدي دخول الاب للسجن الى نقلة مفاجئة فى الاحداث فبعد أن وجدت الام نفسها وحيدة مع الاولاد قررت الهجرة من البلدة ، الى مدينة طنجة التى كان فيها

---

(١) محمد شكرى : الخبز الحافي، ط ٢، طنجة (المغرب) ١٩٨٣، والمؤلف من مواليد بلدة بني يشكر قرب تطوان ، بدأ تعليمه بعد البلوغ وهو الان رئيس فرع اتحاد الكتاب فى طنجة، صدرت له مجموعة قصصية "مجنون الورد" ، ومجموعة أخرى بعنوان الخيمة ١٩٨٤

(٢) المصدر نفسه السابق : ص ص : ١-١١

(٣) محمد شكرى : الخبز الحافي "مرجع مذكور" ص ١٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الاسبان . وكان فيها طعام ومال كثير . وهناك تكتشف ان الاب اعتقل لفراره من الخدمة العسكرية في الجيش الاسباني . وتبحث عن عمل فلا تجده . وعندئذ تبدأ الاعتماد على الطفل الذى يشرع في انتزاع اللّقمة من افواه الآخرين ، بالسرقة أو بالاحتيال او الشّحاذة ،أو جمع البقول من جوار المقبرة (١) . ويرى الطفل الشرطة يلقون القبض على طفل في مثل سنه ، ويضربونه كما يضربون الرجال والاولاد المجتمعين ويسوقونهم الى السجن .

تمتهن الام بيع الفواكه والخضر في السوق (٢) . ويتساءل : "أبى يدخل السجن . وأمى تبيع الخضر تاركة اياى وحدى جائعا . . لماذا لا تملك ما يملكه الاخرون . . ؟ (٣) .

هذه المؤشرات تحلل عناصر الشّخصية فى أثناء تكوّنها الأوّليّ . فقسوة الاب ، ووحشيّته ، وانصراف الام عن الطفل للعمل فى السوق من اجل كسب قوتهم اليومى ، والحرمان من الحنان ، وانتشار القسوة فى الشارع وعلى مستوى العلاقات العامة ، هذا كله يجتمع ليصوغ شخصية البطل على مشاكلة معيّنة ، ولا بد أن يدخل عامل آخر فى الحساب ، فالعيون تتغامز حول الام ، ولا بد أن يلاحقها الرجال ، وينتج عن ذلك همّ جديد يشيع في حنايا الطفل الذى يرقب بقلق انتفاخ بطن أمه (٤) .

وما تلبث الأم أن تنجب له اختا تسمّيها (أرجيو) لتشغله بها ساعات من النهار عن الخروج للعب . وفى القسم الثانى من الرواية يخرج الاب من السجن وتتوجه العائلة الى تطوان ، وتستأنف الام بيع الخضر فى السوق ، أما الاب فينعم بالبطالة ، ويستلذ الكسل ، ويكتشف الصغير انه ـ أى الاب ـ رغم وحشيته وقسوته يحب زوجته . وتحدث ممارساتهما الجنسية انطباعا فى ذهن الصبى حول علاقة الرجل بالمرأة " عندما أكبر ستكون لى أمراة ، أخاصمها فى النهار بالضرب والشتم واصالحها في الليل بالعرى والعناق . . . انها لعبة جميلة وسلمية بين الرجل

---

(١) المصدر السابق ص ٢٣
(٢) المصدر السابق ص ١٨
(٣) المصدر السابق ص ١٩
(٤) المصدر السابق ، (م م) ص ٢٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والمرأة . . (١)

في تطوان يصطدم البطل على صغره بحقيقة مرّة وهي حقيقة العمل في أوضاع مذلة من أجل العيش . فهو يشتغل في إحدى المقاهي (٢) . ولا يلبث ان يترك المقهى ليحترف سرقة الدجاج والبيض والفواكه من البساتين ، وافراخ الحمام ، ليبيع ذلك كله لاصحاب الدكاكين .

في هذا الطور من القصه تصبح سهمة الراوى رصد التطوّر البيولوجي للبطل : " يؤلمني صدري . سألت عن ذلك الكبار فقيل لي إنه البلوغ ." (٣) وتغدو هذه الملاحظة مدخلا لوصف علاقة بريئة مع آسية ، ابنة البستاني ، الذى اعتاد أن يختلس منها التين (٤) ، وخطا اخضر يسمح لكثير من الانحرافات - في العادات - والسلوك - ان تظهر (٥) . ثم العودة الى العمل في المقهى . فماسح احذية لا يتّقن عمله ابدا وبائع جرائد (٦) . ومتسكعا في الازقة السفلية من المدينة حيث دور البغاء أو المواخير (الموردیل) التي يبدد فيها البطل عن نفسه ما تراكم عليها من آثار الكبت والقمع (٧)

ولم يطل المقام في تطوان ، اذ سرعان ما يقرر الأب السّفر الى الجزائر ، وفي أثناء الرحلة يتعرف البطل على المدى الذى بلغه الفقير في الغالبية العظمى من أهل المغرب (٨) .

وفي الجزائر يعمل في مزرعة لاحد الفرنسيين ، ويسمع لاول مرة بعبد الكريم الخطّابي بطل الريف (٩) وهذه اشارة مهمة اذ هي تبين أثر الفقر والجوع والجهل وقسوة الاب على نفسية البطل الذى استلمه الواقع كل ما لديه من قوى نفسية خيرة

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٢٧
(٢) المصدر السابق نفسه (م م ن) ، ص ٢٨
(٣) المصدر السابق ص ٣١
(٤) المصدر السابق ص ص ٣١ - ٣٤
(٥) المصدر السابق ص ص ٣٣ - ٣٤
(٦) المصدر السابق ص ٣٨
(٧) المصدر السابق ص ص ٣٩ - ٤٥
(٨) المصدر السابق ص ص ٤٨-٤٩
(٩) المصدر السابق نفسه ص ٥٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويدرك فداحة الجرم لأنه لم يتعلم الكتابة والقراءة . "أنا لم اهرب من المدرسة . اننا جدّ فقراء . والدراسة تكلّف" . (١)

ويزور سيدى بلعباس، ويقارنها بوهران ، ولكن العمل والاعجاب بالفرنسية (مونيك) وتدليل خالته له ، كل هذا لا يشغله عن الحنين الى تطوان : "تطوان الخمر ، والنساء ، والكيف" . (٢)

ويعود البطل الى تطوان . وهناك يشرّده ابوه ، فيتذوق مرارة التسكع ، والبطالة والنوم في العراء على الارصفة الباردة ، ولا يجد مناصا من أن ينضم الى عصبة من النشالين . (٣)

تبقى الروايه بعد ذلك سردا لاوضاع نفسية قلقة متمردة ، قسوة الأب ، ووحشيّته ، البغاء وانتشاره ، والمخدرات ، والتشرّد ، وانعدام الأمن ، واضطراب المدينة .. "وضعت حجرا في قبضتي وتركت الآخر قرب رأسي ، لا بد لي من شراء سكين ، أو شفرات الحلاقة ، يجب ايضا أن اعثر - في هذه المدينة المتاهة - على مفلس مثلي" (٤)

وفي طنجة تلوح في الافق احداث جديدة . اضطرابات . مظاهرات . الشرطة الاسبانية تلاحق الشبان وتطلق عليه الذخيرة الحية ، ويسقط بعضهم صرعى . البطل - الراوى - لا يفهم ما يحدث ، ولا يستطيع ان يعلّق على الامور (٥) بل يصبح همّه الاول ، وشغله الشاغل ، أن ينجو مع صاحبه الكبداني فيلجآن الى أحد الأصدقاء في حي من المدينة (٦) . ويستفسران من صديقهما قابيل عن سبب الحوادث فيزعم ان ما يجرى بسبب ذكرى (٣٠) آذار (مارس) أى الذكرى المشؤومة لعقد الحماية الذى قسّم المغرب بموجبه الى محميّتين احداهما إسبانية والاخرى فرنسية (٧) .

---

(١) المصدر السابق ص ٥٣
(٢) المصدر السابق ص ٦٦ وكلمة (الكيف) كلمة دارجة تطلق على نوع من المخدرات يشبه الحشيش .
(٣) المصدر السابق ص ٧٠
(٤) المصدر السابق ، ص ١٠٨
(٥) المصدر السابق نفسه ص ص ١١٥ - ١١٧
(٦) المصدر السابق ص ١١٩
(٧) المصدر السابق ص ١٢٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومع ذلك فان البطل وجماعته يواصلون استمتاعهم بأغاني أم كلثوم القديمة، وممارسة الغراميات المبتذلة مع العاهرتين بشرى وسلامة في منزل الصديق (١) الذي يقدم للبطل عرضا بالعمل في نقل المهرّبات (٢) وهكذا يحس البطل بنقلة كبيرة في حياته وهو في السابعة عشرة من عمره . وعلى الرغم من كل ذلك فالبطل يدرك مرة أخرى ان له صلة بالحوادث العامة التي تقع في البلاد . "لقد جاء الاوان الذي سيطالب فيه المغاربة بالاستقلال" (٣)

ثم يتعرض البطل لحادثة يقاد على أثرها الى مخفر الشرطة، وهناك يطلبون منه أن يوقع على محضر، فيكتشف أنه لا يحسن القراءة أو الكتابة، فيسخر منه الشرطة ثم يضعون ابهامه على (المدادية) ويجعلونه (يبصم) ، ويتساءل عن الشيء المكتوب في الورقة فلا يجد الجواب . (٤)

وهذه الحادثة تجعله يفكّر لاول مرّة بفداحة الذنب لأنه لم يتعلّم، ولم يعرف الكتابة والقراءة، عندئذ يبحث عن وسيله فيعثر على مدرسة في العرائش، ويبدأ الحياه من جديد .

بين السيرة الذاتية والرواية الادبية :

وعلى الرغم من أنّ الخبز الحافي "سيرة ذاتية حقيقية الوقائع والاشخاص الا أنها رواية بكل ما تحمله هذه اللفظة من معنى ، فالكاتب لا يكتفي بعرض الاحداث بل يسلط الاضواء على الاسباب والمسببات . ويبرز لنا عن طريق التحليل مكونات الشخصية الاساسية : بحيث صيغت بالشكل الذي جعلها أسيرة لمركب النقص " عقدة اوديب" وعلى هذا نشأ الشّاب ثائرا متمردا ،غير ميال الى الالتزام بعرف سائد ، أو خلق

(١) م . شكري : الخبز الحافي ،(م٠م) ص ١٢٢
(٢) المصدر السابق : ص ١٢٩
(٣) المصدر السابق ص ١٦٣
(٤) المصدر السابق ص ١٨٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قويم ، واخذت توجهه شهوته نحو المرأة ، واملأت حياته بعد ذلك بالمغامرات مع الشطّار والصعاليك والعاطلين والعاهرات ومدمني المخدرات والخمر . بل امتدت ثورتة الناقمة تلك الى اللغة والأشكال الفنية السائدة . فنجده يتعمد الفحش والاسفاف فيما يستخدم من عبارات وألفاظ كما يتعمّد - في الوقت ذاته - وصف مشاهد الشذوذ الجنسي ، ان رواية" الخبز الحافي " تجريح واضح للمجتمع، ولطبقاته العالية والسفلى ، وادانة مستمرة للاوضاع التي جعلت من أبناء الشعب شخصيات مستلبة ومستبعدة عن مسرح الاحداث، وهي رواية الادانة للفكر السائد واللغة السائدة رغم انها لم تحاول أن تطرح البديل المناسب على أي حال .

قد يكون الجزء الثاني من السّيرة وهو الذي لم يصدر بعد فيه ما فيه من الجواب حول هذه المسألة ، فالقاص ختم سيرته بالتوجّه الى درب المعرفة الذي حرمته اياه ظروف وملابسات أتى على ذكرها في النص . . .

ولعل الذي يميّز سيرة القاص محمد شكري عن غيره انه لمس الحياة العامة لمسة خفيفة ، في حين أن ابن جلون اكتفى بما يدور داخل الأسرة ، وقد جاءت سيرة ابن جلون انكفاءا على الذات في حين أن محمّد شكري جاءت سيرته منفتحه على الآخرين الذين لم يكونوا في يوم من الايام موضع عناية الشاعر أو الثائر القاص أو الكاتب الروائي . فأشخاصه من المتشرّدين والعابثين والمشبوهين من مهربين ومستلبين . . . لهذا فالسيرة تفتح ابصارنا على الجوانب الخفية من حياة المغرب وتشدّ عقولنا الى سِيَر الملايين المغيبة من الناس . (١)

خناثة بنونة والرغبة في تدمير العالم :

واذا كانت الخبز الحافي سيرة ذاتية تعبر عن الوجدان الفردي المسكون بالقلق ، والغربة ، والجوع ، فان رواية " الغد والغضب" توشك ان تكون سيرة ذاتية لبطلتها (هدى) التي تعيش في بحر من القلق والاحساس العميق بالاغتراب في

(١) انظر : محمد برادة ، دراسة حول الرواية في مجلة " ادب ونقد " المصرية ، ع ٤ مايو ويونية ١٩٨٤ ص ص ٨-١٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مجتمع تسوده الفوارق ويملؤه الزيف وتهدّد طاقته الانحرافات في السلوك والعمل .

فالبطلة (هدى) تتعجّل كل شيء وهي في عنفوان الشباب ،انها ذات خصوصيات جبارة ، ولكنها لا تستطيع أن تبني لما تعانيه من السوداوية القاسية ، التي تقف بها عند لا مبالاة قاتلة ، أوعنف ساحق ، ولهذا تدعوها صديقتها سلمى الى الارتباط بما هو واقع واعطاء وجودها حلا ما بعمل معين . (١)

وعبر عدد متواضع من الشخصيات تمضي القصة ببطء وسط فيض من التأملات والمشاعر . فسلمى صديقة البطلة (هدى) هي وجودها الثاني (٢) أو هي ضميرها النقي بكلمة ادق (٣) وعائشة الاخت ، وهند ،وهي الزميلة في الجامعة والتي تصل الى مستوى الاخت ، صداقة وحبا ووفاء ، ومحسن وهو صديق رأته للمرة الاولى في المحمّدية ، وهو طالب حقوق ،يسكن في المدينة الجامعية ، الى جانب الاب ، والام اللّذين يؤدّيان دورا ثانويا هزيلا قياسا للدور الرئيسي الذى تؤدّيه الابنه هدى .

تتخذ الرواية ، ابتداء من الصفحات الاولى موقفا من مشكلات المثقفين تذكرنا برواية " جيل الظمأ " لمحمد عزيز الحبابي . فالبطلة (هدى) تعاني من احساس بالغربة والخيبة والمرارة . وفي اللحظات التي تقضيها العائلة على شاطىء البحر تنعم بالدفء والشمس وسخونة الرمال ولحظات العرى التي ينتظرونها عاما كاملا ، فهل لهذا المزاج مصدرهُ الموضوعي ؟ الجواب يأتي من النص : " فالقيود هي الاساسُ ، والحريةُ وهمٌ ، ومتى يدرك الكلّ خسارته ؟ . اودّ لو دمرت العالم واجتحته كالسيل (٤) " .

لقد كان العالم في ـ الخبز الحافي ـ عالما مدمّرا ، وكان البطل ـ محمد شكري ـ

---

(١) خناثة بنونة : الغد والغضب، دار النشر المغربية، ١٩٨٢ ص ١٧
والكاتبة من مواليد فاس، (١٩٤٠)، تعمل مديرة مدرسة ثانوية في البيضاء، ولها قصصية منها : ليسقط الصمت، و" النار والاختيار" و" الصوت والصورة
(٢) المصدر نفسه ص ٦٠
(٣) المصدر نفسه ص ٦٤
(٤) المصدر نفسه ص ١٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يحاول ان يعثر لنفسه على موطئ قدم في ذلك الزحام الهلامي غير المستقر، أما خناثة - هنا - فهي يبدو لها العالم بما عليه من دفء واتساق عالما محاطا بالقيود ولكي تنتزع حريتها وتمارسها لا بدّ أن تدمر العالم . فكلتا الروايتين اذن تعبّران عن روح القلق والهزيمة المريرة تجاه الحياة والمجتمع والعالم بتركيبة الحالي .

واذا كان الاب رمز السلطة الدينية والاجتماعية ورمز الماضي يعتقد بأن النجاح سلاح المرء في مواجهته لاشكالات الحياة المعقدة فان (هدى) تعتقد بان هذا الرأى يستند الى معايير خاصة مقتبسة من طابع فاسد : " فالاب لم يكن حرا حين جعل الثقافة سلاحا في معارك مجتمعات معينة " . (١)

لقد كانت الاسرة تحاول دائما ان ترسخ في ذهنها الفكرة السائدة حول النجاح الدراسي . وانه مفتاح السعادة، والطريق المستقيم نحو حياة عملية جيدة . ولكنها بعد التخرج والنجاح تكتشف زيف هذه القيم، والآراء التي هي وليدة نظام فاسد من المفاهيم والتقاليد . ومن هنا تنهض في نفسها الرغبة في التخلص من الاب رمز الماضي أو على الاقل ادانته ووضعه في مأزق حرج يصبح الاقرار فيه بأن هذا الجيل قد انتهى أمرا مقبولا ". يلذ لي والسيارة تزداد انسيابا أن اضبط أبي في بسمة . أن أحس بذلك العالم المتضخم المتطاول من العفة والتسلط وخلق القيم ينهار وتعصف به ملامح شهوانية لامرأة رائعة فتسخر من أعوامه وغطرسته وحذلقات قيمه (٢).

والواضح أن النزعة الوجودية تكاد تطغى على الكاتبة في روايتها هذه . فغالبا ما تحاول أن تعبر عن سأمها وعن رفضها للحياة، والعالم رهن حزنها ومزاجها السوداوي ...

ولكن الرواية تنفرد في شيء آخر وهو انها تحتوى في تضاعيفها روايتين متوازيتين تلتقيان حينا وتفترقان كثيرا . وقد ميزت بين الروايتين طباعيا بحيث تخلل السرد العام للنص سرد خاص بين أقواس يروى حكاية الاستاذة القادمة من الشرق

(١) خناثة بنونة : الغد والغضب : ص ١٢
(٢) المصدر السابق نفسه : ص : ٢٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد وضعت يدها على أكبر وصمة في تاريخ العرب . وتسأل طلابها اين فلسطين ؟ فتحار العقول ، وتضطرب الأذهان ، فتقرر ان تفعل شيئا . " العمل هو ما أريده والمباشرة بلا ثرثرة . فساستنا اضاعوا طاقة تفكيرنا في غزوهم الأجوف لحاسة السمع ونحن في الاسفل لا بد أن ندب " . (١)

وتحاول المعلمة بعث الحركة في صفوف الطلبة والطالبات ،وانتقاء الاساليب العقيمة المتبعة في التعليم ، التي لا هدف لها سوى انتاج جيل يظل كالجيل السابق خارج دائرة الفعل ، ولهذا : تصف وضع الطلبة بالعبارة القصيرة التالية : " صغار في البيت ،بلا حق في المشاركة ،غائبون في الدروس، وهامشيون في المجتمع، بعيدون عن التخطيطات والاختيارات السياسية والاقتصادية . هذا هو واقع الفرد والمجموع فهل ترانا سنحافظ على اسلوب الموت هذا " . (٢)

وتحاول الاستاذة ان تبعث في طلابها حب البحث، وروح التشوق للمعرفة والمشاركة في اعطاء الحصص عن طريق تحضير البحوث القصيرة ، واستخدام المصادر والمراجع المستعارة من المكتبة العامة (٣) وتحرص ايضا على بعث الافكار الثورية في التلاميذ ، متذكرة دائما قصة الطالب الذى اخبرها بان أحد الرجال في قريتهم يظن فلسطين امرأة اغتصبها اليهود . (٤)

ويسعد المفتش التربوى بعد ان يتعرف على تجربة الاستاذة ، ويواظب على حضور الدروس . يقول لى : " الحضور في درس دفعني لأن أكرره . فأن تشهد مراهقين ينجزون ما يخلق منهم رجالا شيء يفرح " . ويقول الطلبة : " لقد ايقظت فينا شخصيتنا يا أستاذة " . (٥)

---

(١) خناثة بنونة : الفد والغضب ،ص ٣٤
(٢) المصدر السابق نفسه : ص ٣٥
(٣) المصدر السابق نفسه : " : ص ٥٦
(٤) المصدر السابق ص ٨٨
(٥) المصدر السابق ص ١٢٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ونقطة الالتقاء بين الروايتين (هدى ، والاستاذة) انهما تصوران صراعا بين نقيضين : فالاستاذة تبادر عن طريق العمل لوضع الحلول موضع التنفيذ في حين أن هدى تسترسل في عالم من التأملات والمشاعر وتوشك ان تبشر بان خلاص هذا الجيل لا يمكن أن يكون الا على أيدى الثوريين من أمثال هذه الاستاذة التي صنعت بارادتها الحديدية ، وذكائها القوى ، من الاطفال رجالا يناقشون ويتحدثون ويختلفون في الرأى ويردّون على معلميهم بجرأة وثقة تامين .

وفي نهاية الرواية يصيب المرض الاب ، ويحتضر ، وتوحي الكاتبة بوفاة الاب القاسى مذكرة بنهاية الحاج محمد التهامي في رواية " دفنا الماضي " . ولكن هذا لا يمنع أن تظل الرواية اسطوانة جديدة ضمن الاسطوانات القديمة المعروف التي تبث دوما اغنية حزينة عن القلق وغربة الانسان المعاصر في وطنه ومنفاه .

توظيف الجنس في روايات محمّد زفزاف :

وهذا الذى تطرقت اليه خناثة بنونة في روايتها " الفد والغضب " يكاد يطغى على معظم الروايات التي صدرت لمحمد زفزاف . ففي روايته " المرأة والوردة "(١) نجد " البطل الحادّ المزاج ، الذى تتنازعه قوتان داخليتان : الرغبة العميقة في الانضباط داخل البنية الاجتماعية ، وخوفه السطحي من أن يصير هذا الانضباط انضباطا(٢) . وهو يحاصره الفراغ والاختناق والعبث(٣) . ويقول احمد اليابورى في تقديمه للرواية ان محتوى الرواية الاخلاقي ، ومغزاها العميق الشاسع ، يكمن في بذور الثورة على الكبت والاستغلال ، ويسعى لاعادة الثقة بالنفس من أجل التحرر .(٤)

ومن خلال هذه الاراء في الرواية ندرك أن النقاص يسعى - من خلال النص - للبحث عن موطن " قدم لهذا البطل بين الزحام البشرى المتناثر . انها محاولة

(١) محمد زفزاف : المرأة والوردة ، ط الشركة المغربية للناشرين ، الرباط ، ١٩٨١ والمؤلف ولد بالقنيطرة ، ويعمل استاذا في الدار البيضاء ، وله مؤلفات قصصية وروائية عديدة منها : "بيضة الديك" ١٩٨٤ ، "والشعلب" ، ١٩٨٥
(٢) المصدر السابق : ص ١١
(٣) المصدر السابق ص ١٥
(٤) المصدر السابق ص ١٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لصيانة وضع الفرد وحمايته من أن تضيع حريته أوازنته فيما تصوغه المؤسسة الاجتماعية من عادات وتقاليد وقيود . وهذا هو المعطى الوجودي البارز في كل ما يكتبه زفزاف كما سنلاحظ . بيد أن هذه المسألة تندمج في رواية " المرأة والورود " مع موضوع آخر وهو علاقة المحلي بالاوروبي .

العلاقة بالغرب :

يقول الكاتب في بداية الرواية، مقارنا بين الحياة في اوروبا والحياة في المغرب اننا محظوظون في اوروبا اكثر مما نحن عليه هنا في الدار البيضاء . . . هنا تسيّرنا أقلية من المغامرين والقوادين وبائعي نسائهم فيمنون الشركات ويستثمرون الاموال ويطردوننا من المقاهي والمراقص " . (١)

وهذه المقارنة التي يعقدها أحد المغاربة العاملين في استردام ذات وجه اجتماعي سياسي ، ووجه آخر حضاري ونفسي يتعلق بهواجس البطل وفرديته البارزة . فالوضع لم يعد يحتمل : اذا استنجدت بشرطي فسيضربك على رأسك ، ويقودك الى المركز لتشم رائحة الاوساخ والقذارة ، وقد يكلفك بتنظيفه من قيء السكارى . وكل هذا لأن هؤلاء الشرطة اميون ، جهلة ، قادمون من البادية متحولوا من وراء الماشية والابل الى سكان آخر وراء الشعب ، يرفسونه ويذلونه " . (٢) فالامر إذن ناتج عن سيطرة القمع ، وسيطرة الطبقة المستغِلّة (بكسر اللام) على المرافق الحيوية السياسية والاقتصادية في المدن . وتسخير اجهزة السلطة لصالح هذه الطبقة . لكن المشكلات الاجتماعية والسياسية القائمة تجعل البطل يبحث لنفسه عن منفذ آخر يمارس فيه حريته فلا يجد غير الادمان على الخمر ، والمخدرات ، والجنس . وكأنه يعمل بالقول الشائع: اذا لم تكن للحرية موجودة فكل شيء مباح " . حركت اقدامي ، تذكرت ماضيّ السّيء الذي عشته واحدا مثل الملايين في قرى قذرة منتشرة في جبال الاطلس ، أو جبال الريف ، أو سهول الشاوية ، أو صحراء طنطان المترامية . . . وتذكرت صوت الآلام الكثيرة

(١) المصدر السابق نفسه ص ٢٥
(٢) محمد زفزاف : المرأة والورود ، ص ٢٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التي قصمت ظهرى الضعيف . الآن وجدت الحل ، امرأة بدينة تحبني وتنقذني من هذه الورطة الصعبة التي تتخبط فيها أوهامي وأحلامي " . (١)

فالمرأة - اذن - تغدو بديلا وتعويضا عن الهدف الضائع : الحرية والعدل والامن النفسيّ والاجتماعيّ .

وعندما يغادر البطل (محمد) أرض الوطن باتجاه الريفيرا في اسبانيا برفقة (سوز) وهي امرأة تعرّف عليها في شاطئ طنجة تقول له : "لا تخف . ارجوك . خذ كامل حريتك . وتصرف كما لو كانت اسبانيا كلها لك وحدك " .(٢) هذا الاحساس المفاجئ بالحرية شيء لم يتعوّده محمد ،ولا أي من أبطال الرواية، الامر الذي ينشأ عنه احساس قوي بالانسلاخ ،أو الرغبة بالانسلاخ عن الوطن،والهجرة منه الى الابد ، أو العودة اليه ضمن مخطط جريء للتغيير : "رغبتي هي أن افتح بارا في احدى دول امريكا اللاتينية، أو شراء الاسلحة، وادخالها للريف، من اجل محاربة السلطة، ببنادق غير صدئة، كما حدث عام ١٩٥٨ " .(٣)

التمرّد على العبث :

والواقع ان رغبة البطل هنا في الهجرة، أو العودة، لمقارعة السلطة، تمثل ثورته على وضع نفسي وفردي ، فهو لا يمل الحديث عن الهروب، والمخدرات، والخمر والبحث عن رسائل ترويح لا تخضع لسيطرة الرأسماليين الذين يحملون عليهم ويصفهم بانهم قوادون . وهذه القضية المتصلة بلا انتماء العام، وبتمرّده الكامل على العبث والغوضى ، تنبعث في روايته الاخرى ، وهي : "الافعى والبحر"(٤) التي تتلخص في أنّ سليمان ، وهو شاب متعلم يعشق الكتابة الادبية ، يهجر مدينته الكبيرة ، (الدار البيضاء) ، ويتوجه الى مدينة ساحلية صغيرة : (الصويرة) ، بحثا عن الهدوء و الراحة النفسية من أجل ان يكتب شيئا ذا قيمة . ولكنه يفاجأ بان الهدوء الظاهري

(١) المصدر السابق نفسه : ص ٦٨
(٢) المصدر السابق ص ٧٢
(٣) المصدر السابق نفسه ص ٩٧-٩٨
(٤) محمد زفزاف : الافعى والبحر، ط اولى ، الدار البيضاء، مايو (ايار) ١٩٧٩ وانظر ما كتبناه عن الرواية في : المعرفة، السنة ١٩ ، العدد ٢١٩ ، مايو (ايار) ١٩٨٠ ص ص ٢٢٦- ٢٣٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في المدينة الصغيرة يخفي وراءه فساداً وفوضى ، وعلاقات اجتماعية وأسرية مفككة ، لا مثيل لها حتى داخل المدن الكبرى ، وبدلا من أن يخلو الى نفسه لمواصلة الكتابة يجد نفسه منهمكا في هذه الاجواء الصاخبة التي يسيطر عليها الجنس والخمر والمخدّرات ويحركها البورجوازيون الذين يتاجرون باعراض نسائهم .

وينشغل القاص في وصف الحياة الناعمة على شاطئ "البحر" باسلوب شاعري يحبب الى القارئ مثل هذه الاجواء : "ذهب سليمان وغطس في الماء ، وهو يشعر بسرور عارم لم يكن يدري سببه على الاطلاق ، ان دبيب الماء فوق الجسم يشعر سليمان بانطلاقة غريبة . . . انطلاقة في عالم جميل رائع ، مثل العالم الحالم الذي يقرأ عنه في سلسلة من بعض الكتب" . (١)

وتتخلل القصة كما سبق ان اشرنا انتقادات عنيفة لفئات اجتماعية يجدها القاص مسؤولة عن الوضع القلق للفرد : "فالبورجوازيون المصطافون ليس لهم هم سوى رفع المهور ، وتزويج بناتهم من الاسماء التي تبدأ بـ(بن) ولا يهمّهم الشخص بقدر ما تهمهم العائلة" . (٢) وهو يعتقد ان الفيلات الانيقة في المدينة الساحلية الصغيرة شيّدت بنقود الوزراء الذين حوكموا بتهمة الرّشوة واستغلال النفوذ (٣) ويفرط الكاتب في الانتقاد حين يجعل من الصبيّ ذي الكرة قوّادا ، يرشد (سليمان) الى شقيقته سوسو . أما هو - أي سليمان - فيصبح قوادا إذ يحدّث صديقه (كريمو) عن جمال خليلته وشوقها للرجال ، بل يدعوه صراحة الى زيارتها في البيت رغم علمه بأن (كريمو) هذا لا يحبّ النساء ، ولا الزواج ، ولا العلاقات العاطفية . (٤)

وهو يحمّل الفئات البورجوازية مسؤوليّة هذا الوضع المتردّي في المدينة" ان هذه الطبقة الواقدة من الدار البيضاء قد افسدت هدوء المدينة الصغيرة" . "في الليل كنت تسمع ، وفي كل مكان ضربات البنادير (٥) ، وكانت الأعراس والحفلات الدينية كثيرة ، كان الناس سعداء ، أما الآن فانصت الى هذا الصّمت اللئيم ، لقد

(١) المصدر السابق ص ٢٠ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٢١
(٣) المصدر السابق ص ٣١
(٤) المصدر السابق ص ص ٣٩ - ٤٢
(٥) البندير هو آلة موسيقية تشبه "الدف" .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد اصبح الناس هنا يخافون " . (١)

وخيبة سليمان من هذه الرحلة تمثل على المستوى الرمزى خيبة المثقف المغربي من رحلة الكفاح من أجل الاستقلال . وخيبته ازاء نظام اجتماعي وسياسي قائم على القهر والاذلال والقيود . فالحرية الفردية تكاد تكون معدومة باستثناء ما يتم وراء الابواب المقفلة ، ولهذا فان الرواية تدور في معظم الصفحات داخل هذا الفضاء الروائي الكامن وراء الجدران ، وفي الأقبية حيث تمارس الأفعال الشاذة وحيث تبرز القيم والتقاليد والعادات في موضع حرج للغاية . وكأنها تجتاز امتحانا عسيرا كتب عليها آن لا تحصد من ورائه الا الفشل الذريع .

محاولـــه عيـــش :

وبالرغم من أن القارىء حين ينتهي من روايتة الاخرى " محاولة عيش " (٢) يجد نفسه يتساءل : ما الذى يعنيه الكاتب بهذه الرواية ؟ أهي مجرّد سرد لاحداث طريفه أم أنها تطمح إن تقدم تجربة ذات بعد رمزي . ومثل هذا التساؤل - في نظرنا - تساؤل مشروع فهولا يكاد فعلا ، يظفر بنتيجة ، أو موقف . تبدأ الحكاية بمشهد صاخب يحاول حميد (البطل) وصديقة (الضاوى) بيع الجرائد في باخرة لنقل الخمور من الدار البيضاء الى فرنسا . ويصف باسلوبه الجميل ما يحدث لهذين الشقيين على سطح الباخرة وفي الفصل الثاني من الرواية يعود بنا القاص الى المرحلة التى ابتدأ منها حميد ورفيقه (الضاوى) رحلة الخروج من أكواخ الصفيح وبراريك القصدير(٣) ، الى قلب المدينة ليتسلما الجرائد وينطلقا الى المقاهي والبارات والمطاعم والاماكن العامة . ثم يصف الحياة داخل أحياء الصفيح وما تتميز به من القسوة والبؤس وانتشار الرشوة والفساد الاجتماعي . ثم ينتقل نقلة قصيرة فإذا بالسيدة تفكر بتزويج الابن (حميد) وتخطب له (فيطونة) العرجاء . ويكاد يكتمل الزواج حين تظهر في الأفق شخصية جديدة

---

(١) محمد زفزاف : الافعى والبحر ص ٤٤

(٢) لم تنشر هذة الرواية في كتاب وانما ظهرت في العدد (٢) السنه (١٩٨٠) من مجلة اقلام العراقية ص ص ٢٤ - ٥١

(٣) توجد في المدن المغربية احياء كاملة كل بيوتها من الصفيح .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هي شخصية (البغي) : "غنّو" التي تعرف اليها حميد في آحد البارات بعد معركة ضارية بين مغربي وأمريكي من نزلاء القاعدة الامريكية . . . ثم يستطيع (حميد) أن يخلص (غنّو) من الوضع ويأخذها الى بيتها وتبدأ بينهما علاقة قائمة على الاحترام المتبادل ، وضمان الحرّية الشخصية الكاملة لكل منهما ، واشتراكهما في الفراش بين حين وآخر .

هذا الحدث يؤثر في شخصية (حميد) فيبدأ الاهتمام بمظهره ، ويظن الاخرون أن هذا الاهتمام ناتج عن خطبتة (لفَيْطونَة) ولكن تأخّره عن البيت وعودته بعد منتصف الليل ، بل تكرار مبيته في الخارج (لدى غنّو) يثير الشك في نفس الاب والام- وتقوم قائمة الأم حين تعلم بان (حميداً) يقضي الليل في بيت صديقه ولهذا تُعجّل في تزويجه من(فَيْطونَة) ويحدث الزفاف ، وعند الدخول بها يتأخر (حميد) فتخشى الام أن لا يكون ولدها فحلا كما وعدت ، وتطرق عليهما الباب فيخرج حميد ليُنبي " الام " بأنّ فَيْطونَة ليست عذراء " ، ثم ينطلق مسرعاً باتجاه (غنّو) .

وتنتهي الرواية عند هذه الخاتمة التي لا علاقة لها بمقدّمات النص ، التي تتحدث عن الجوع ، والغثيان ، الذي يصيب الفتيان في اثناء محاولتهم للتكيف مع وضع حياتي شديد القسوة . ان غربة حميد داخل البيت اولا ، وداخل حي الصفيح ، وداخل البارات والمقاهي ، أوجدت لدية احساسا بعدم الانتماء لهذا الوطن ، ولم يجد بديلا لذلك غير الهروب الى الخمر ، والمرأة ، مذكرا ببطل (المرأة والوردة) وهو يقول : " الآن وجدت الحل . . امرأة بدينة تحبني وتنقذني من هذه الورطة الصّعبة التي تتخبط فيها أوهامي ، وأحلامي . . . " . (١)

وهذا الموقف الذي يتكرر في روايات محمد زفزاف ، وقصصه القصيرة ، يشير الى تأثره بمذهب القاص الانجليزي (D.H. Lawrence) الذي اشار اليه أحمد اليابوري في مقدّمة روايتة " المرأة والوردة " مركزا في قوله : " ديانتي الكبرى هي الايمان بأنّ الدم واللحم أحكم من العقل ، فقد تخطي " عقولنا ، ولكن ما تشعر به دماؤنا وتعتقده وتعبّر عنه صادق على الدوام " (٢) وهذا الذي تعبر عنه رواية

(١) محمد زفزاف : المرأة والوردة (م . مذكور) : ص ٦٨
(٢) المصدر السابق نفسه : ص ١٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

" ارصفة وجدران " . (١) فبطلها (بومهدي) لا يختلف في سلوكه العام عن بطل الروايات المذكورة .

فالواقع يهتز على ايقاع امرأة عابرة في الشارع، " هذا الجسم، هذه اللذة تساوى العالم " .ويقول أحمد اليابورى في معرض المقارنة بين البطلين : ما أشد الشبه بين بومهدى - بطل ارصفة وجدران - وباربوس في - المرأة والوردة - الذى يحدثنا عن تيهه ،وشبقه الجنسي " . (٢) فهو لم يكن يفكر في شي " غير ليلى ،ونانسي ، مثلما أن بطل " المرأة والوردة " لا يفكر بغير سوز، وبطل " الافعى والبحر" لا يفكر بغير سوسو .

رؤية فردية :

وزيدة القول ان محمد زفزاف في رواياته هذه ينطلق من رؤية فردية تقوم على ادراك أن الواقع واقع اجتماعيّ ، وحضاريّ ، ونفسيّ ، متخلّف ومنحطّ ، وأن الغلبة فيه من نصيب البورجوازيّين والقوادين والشرطة الاميّين الذين يسوقون المواطن الى أماكن التعذيب دون سبب ،ولكن تجاوزه لهذه الرؤية قائم على تخيّله لعالم من النساء والعاهرات يندمج فيه البطل ، ويغرق في شبقه الجنسي المحموم ، ونهمه للخمر ، أى أنه يعوّض عن عذاب النهار والشارع العام بنعيم في الليل وداخل الاقبية المستورة . وما دام كل شي " محظور - فوق الارض - فليكن كل شي " مباحا تحتها . هذه هي خلاصة الرؤية المهزومة التى تعبر عنها روايات محمد زفزاف القصيرة ، وهذا هو المغزى الايديولوجي لمسألة الجنس فيما يطرحه من كتابات .

---

(١) المؤلف نفسه ، ارصفة وجدران : اتحاد الكتاب العرب، دمشق ، ١٩٧٤
(٢) المرأة والوردة : (م.م) ص ١٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لئن كان غولدمان قد دعا فيما دعا اليه لدراسة الاعمال الابداعية في اطار من الشمولية ، والبحث عن الذات الجَمْعي فيما أُنتجه الذّات الفردى ، لاستخراج رؤية الكتاب للعالم ، فان رحلتنا هذه عبر العديد من النماذج الروائية في المغرب الاقصى ضمن المدة التي اخترناها تأريخا للبحث وعبر الفضاء الذى ارتأيناه حيّزا له ، قد وصلت بنا الى نتيجة مطابقة لما ذهب اليه غولدمان ، وأسلفنا الكلام عليه في الفصول: الاول والثاني والثالث .

فالكتّاب ، في أىّ جيل من الاجيال ، وفي أىّ قطر من الاقطار ، لا بد من أن تشملهم ، وتشمل نتاجهم الادبي ، على الرغم مما بينهم من اختلاف ، وحدة ما . وقد تكشّفت لنا هذه الوحدة ، واستطعنا لمسها ، فيما أجمع عليه هؤلاء الكتاب من القاء الضوء على الحدث الاكبر الذى عمّ المغرب في مطلع القرن ، وهو توقيع صكّ الحماية ، وما رافقه من وقائع ، وما تلاه من كفاح ، بالسّلم حينا وبالسّلاح حينا آخر ، وما تمخّض عن ذلك كلّه من صدمات ايقظت المجتمع المغربي على بقايا العصور الوسطى ، وفتحت العيون والآذان على العالم الحديث القادم بخيله ورجله ، وبخيره وشرّه ، وما استتبع ذلك من ظهور لتيارات سياسية وفكرية شغلت بال المفكر ، والكاتب المغربي .

ولاحظنا ، بالطبع ، كيف يلعب المنشأ الاجتماعي ، والطبقي ، والثقافي للكاتب دورا ما في صياغة رؤيته للاحداث ، ولكن ، مع اختلاف هذه الصياغات ، الا اننا نجد الكتاب ، وهم يتناولون فترة ما بعد الاستقلال (١٩٥٦) يجمعون على موقف ، او مواقف متناظرة ، فالعروى في روايتيه "غربة" و "اليتيم" يدين الاوضاع الجديدة ، ويشبه المغاربة بالمتفرجين الذين لا دخل لهم فيما يجرى على خشبة المسرح ، اما مبارك ربيع فإنه يعبّر عن خيبة الطبقة الوسطى وقد ناضلت في ظل الاستعمار لنيل الحرية ، ثم باءت بالمرارة بعد ان استقل الوطن ، واستأثرت الفئات الأعلى بكل شيء . وهذه الفترة لدى محمد عزيز الحبابي محنة للمثقّفين ، فعليهم ان يتكيّفوا في وضع صعب جدا ، وان يتخلصوا في الوقت ذاته من تركة ثقيلة خلّفها الاستعمار والجهل والفقر في البلاد .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واد ريس الصغير في روايته " الزمن المقيت" يصل الى النتيجة ذاتها ، فالوضع لم يختلف كثيرا والذي كان يعاني منه المواطن لم يزل ابدا .

والميلودي شغموم يعيد طرح الاشياء من جديد على قاعدة اللعبة الادبية التي تحسن استخدام الموروث، والاسطورة، في تأليف أهجية روائية عن العالم . لقد مثّل كلّ من الأبله ، والمنسيّة ، وياسمين ، ثالوثا للادانة . وهي تذكرنا في طريقة طرحها بما طرحه كل من العروي واد ريس الصغير .

والروائيون الذين اهتموا بذواتهم كثيرا ، كعبد المجيد بن جلون ، أو محمد شكري ، أو محمد زفزاف ، أو خناثة بنونة ، لم يستطيعوا أن يكونوا شاذين عن القاعدة، صحيح أن الاوّل منهم جعل من ذاته مركزا مغلقا للكون القصصي ، الا أنه لم يتجنّب المقارنة بين المغرب وأقطار اوروبة ، ولم يستطع اغفال الدور الذي تلعبه التيارات السياسيّة في صياغة الفرد ، وانتاج العبقريّة الادبيّة ، فلقد كان واحدا من ثلّة المثقفين الذين أنشأوا حزب الاستقلال وطوّروه .

ومحمّد شكري في روايته " الخبز الحافي " ظل على تماسّ مع المشكل الاجتماعي " الجوع "والهجرة من تطوان الى الجزائر ،والحرب الاهلية الاسبانية ،والاضطرابات في ذكرى (٣٠ آذار ١٩٦٢) ، والقتلى بالرصاص، و.. "آن للمغاربة أن يظفروا بالاستقلال"، كل هذه الايقاعات نصغي اليها في أثناء الحديث عن (البورديل) (١) والمفاسد الاجتماعية التي تبلغ حدّ الغثيان .

فتدمير العالم ، والبحث عن موطن " قدم للذات ،هو هاجس محمد شكري ، وهذا هو هاجس خناثة بنونة ايضا في روايتها الضخمة " الحقد والغضب" : "لذي رغبة في ان اجتاح العالم ، وادمّره " . وبطل الرواية : " المرأة والوردة" لمحمد زفزاف هو كذلك بطل ناقم ، واشكالي ، لا يطمع في غير المرأة ، والهجرة من الوطن

(١) كلمة فرنسية الاصل وهي من الالفاظ الدارجة وتعني المكان الذي تتردد اليه بائعات الهوى .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

للعودة ببنادق سليمة من أجل ان يثور في وجه جلاّديه . هذه هي الرؤية التي تغلب على الروايات الكثيرة التي درسناها في هذا البحث لنستخرج منها تلك القواسم المشتركة التي تجعل من روايات الكتاب المغاربة روايات مختلفة الاشكال ، والاشخاص والاساليب ، ولكنها - في المحصّلة - تشفّ عن جوهر واحد ، هو الادانة القوية للواقع الذي غلب على الوطن قبل الاستقلال وبعده .

وهذا ما يطابق المعنى الذي قصد اليه غولدمان عند حديثه عن الرؤية المأساوية في أدب باسكال وراسين وحتى ستاندال . (١)

وهذه النتيجة قمينة بان تدلنا على الذات الجمعي الذي تحدث عنه غولدمان فهو الذي يختفي داخل الروايات ويشعرنا بسلطته القوية على فئة من الكتاب متقاربين في المنشأ الاجتماعي ، ويعيشون ضمن سياق ثقافي خاص ، ويبدون وكأنهم منخرطون في عمل جماعي واحد يؤدونه عن غير قصد وبلا وعي ، وتكون النتيجة النهائية لهذا العمل الجماعي نتاجا ابداعيا متلاحما في بنية تشف عن الوعي الاقصى لشريحة من الكتاب يتمايزون عن غيرهم من الافراد بالقدرة على مزج الافكار الدارجة والمفاهيم السائدة ، مع ما تلهمهم اياه المخيّلة لتقديم اعمال ابداعية ذات رؤية نقدية نافذة .

اقول : في نهاية المطاف ، ان ما كسبناه من هذه الرحلة هو : أن دراسة الاعمال الروائية والابداعية ضمن شمولية ما ، أو كلّية نسبية بتعبير غولدمان ، قد يفصح عن نتائج اعمق ، واكثر دقة ، من دراستها بوصفها اعمالا متناثرة ، لكتاب متعددين ، لا يجمعهم قاسم مشترك ولا تربطهم وشيجة معيّنة . وكسبنا ايضا التعرف على أوجه التطابق بين محتوى الروايات ومحتوى السياق السوسيو/ تاريخي ، الذي اسلفنا الكلام عليه في الفصل الثاني .

---

(١) انظر : نهاد التكرلي : اتجاهات النقد الفرنسي المعاصر ، وزارة الثقافة والفنون ، بغداد ، ١٩٧٦ ، ص ص ٦٢ - ٦٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ABSTRACT.....

This thesis is about the Arabic novel in Morocco by a method which is named a sociology of literature. The preface exposes the elements which encouraged me to write in this subject and its literary and historical value.

The first chapter deals with the method and it's main concepts:as significiant structure, totality, world's view, and so on. The second chapter deals with Maroccan socio-historcal bakground, as it is very important to understand the Arabic novels in Maroco very well.

The third chapter deals with the cultural background, the sociology of education, reading , and the oriental infeluences on Maroccans.

After that I recorgnized the novels which give us the historical views like Gallab's works and Mubarak Rabi's works and Ahmad Ziad's works, other works which show us the independanc's period as Rabee's work, and Arawi's Hbabi's Mailodi's, Al-Sagheer's novels, I studied them in the fifth chapter. In this one I put into the light of the artistc, and socio-analysis all the tragical world's views of the writers.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

The next chapter deals the novels which approch to the biographical and turn to the same tragical world view.

At last I added a short conlusion and a list of the Arabic and foreign references.

IBRAHIM KHALIL

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أ - المصـــادر:

أحمد عبد السلام البقالي : سابكي يوم ترجمين : دار الميثاق ، الرباط ، د.ت

أحمد زيـــاد : باموه ، دار الكتاب ، الدار البيضاء ، ١٩٧٤

ادريس الصغير : الزمن المقيت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ١٩٨٣

خناثة بنونـــة : الغد والغضب ، دار النشر المغربية ، الدار البيضاء ، ١٩٨٢

عبد الكريم غـــلاب : دفنا الماضي ، ط ٤ ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، د.ت

عبد الله العـــروى : غربة واليتيم (روايتان في مجلد واحد) المركز الثقافي العربي ، بيروت ، الدار البيضاء ، ١٩٨٠

عبد المجيد بن جلون : في الطفولة ، دار المعارف ، الرباط ط ٢ ، د.ت

مبارك ربيـــع : الريح الشتوية ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، ١٩٧٨ ، (جزءان)

- الطيبون ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ط ٢ ، ١٩٨٠

محمد عز الدين التازي : رحيل البحر ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٨٣

محمد عزيز الحبابي : جيل الظمأ ، الجمعية المغربية للتأليف ، الدار البيضاء ، ط ٢ ، ١٩٨٢

محمد زفزاف : ارصفة وجدران ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ١٩٧٤

- الافعى والبحر ، الدار البيضاء ، د.ن ، ١٩٧٩

- المرأة والوردة ، الشركة المغربية للناشرين ، الرباط ، ١٩٨١

محمد شكرى : الخبز الحافي ، طنجة ، ط ٢ ، ١٩٨٢

ميلودى شغموم : الابله والمنسية وياسمين ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٨٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ب - المصـــراجع

د . ابراهيم السولامي : الشعر المغربي في عهد الحماية من (١٩١٢-١٩٥٦) ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، ١٩٧٤

ادريس الناقوري : المصطلح المشترك ، دار النشر المغربية ، الدار البيضاء ، ط٣ ، ١٩٧٧

بول شاؤول : علامات من الثقافة المغربية الحديثة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧٩

د . جمال شحيد : البنيوية التركيبية ، دار ابن رشد ، بيروت ، ط١ ١٩٨٢

حزب الشورى والاستقلال : هذه هي الحماية في مراكش ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٥٣

حزب التقدم والاشتراكية : " تحاليل ، اهداف ، مفاهيم " ، الدار البيضاء ، ١٩٧٩

سعيد علوش : الرواية والايدولوجية في المغرب العربي ، دار الكلمة ، بيروت ، ١٩٨١

د . سيّد حامد النّساج : بانوراما الرواية العربية الحديثة ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٢

سيد ياسين : التحليل الاجتماعي للأدب ، دار التنوير ، بيروت ١٩٨٣

د . عباس الجيراري : الادب المغربي ، الرباط ، ١٩٧٩

عبد الرحمن بن زيدان : الدرر الفاخرة بمآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة ، المطبعة الاقتصادية ، الرباط ، ١٩٣٧

عبد الكريم غلاّب : مع الادب والادباء ، دار الكتاب ، الدار البيضاء ، ١٩٧٤

عبد الله كنّون : احاديث عن الادب المغربي الحديث ، دار الثقافة الدار البيضاء ، ط٣ ، ١٩٨١

د . عبد الملك مرتاض : الجدل الثقافي بين المغرب والمشرق ، دار الحداثة بيروت ، ط١ ، ١٩٨٢

عزيز سلام : ثلاثة قرون من تاريخ الدولة العلوية ، وزارة الانباء ، الرباط ، مطبعة فضالة ، د . ت

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

علال الفاسي : الحركات الاستقلالية في المغرب، طنجة، د.ت.
: المغرب العربي منذ الحرب العالمية الاولى ، معهد الدراسات العربية العالية، القاهرة ، ١٩٥٥

د . محمد خير فارس : تنظيم الحماية الفرنسية في المغرب(١٩١٢-١٩٣٩) دمشق ، ط اولى ، ١٩٧٢ .

د . محمد عابد الجابري : أضواء على مشكلة التعليم بالمغرب، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، ط ١ ، د.ت .

محمد داود : تاريخ تطوان ، مطبعة المهدية، تطوان ، د.ت

محمد الفاسي : صفحات من تاريخ المغرب الدبلوماسي ، دار الكتاب ، الدار البيضاء ، د.ت .

محمد مكي الناصري : موقف الامة المغربية من الحماية، تطوان ، ١٩٤٦
: فرنسا وسياستها البربرية في المغرب الاقصى ، د . ط ،د ت .

جـ المراجع الاجنبية المترجمة .

آشفورد ، دوغلاس : التطورات السياسية في المملكة المغربية، ترجمة د . عائدة سليمان عارف، ود . أحمد ابو حاكمة دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٣ .

روبير اسكاربيت : سوسيولوجيا الادب، ترجمة آمال عرموني ، ط دار عويدات، بيروت، ١٩٨٣ .

روم ، لاندو : مراكش بعد الاستقلال ، ترجمة خيري حماد ، بيروت ، ١٩٦١ .

د . عبد الله العروي : تاريخ المغرب، ترجمة عن الفرنسية ذوقان قرقوط ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط ١ ، ١٩٧٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الدوريـــــات :

ـ آفاق ، يصدرها اتحاد الكتاب في المغرب، الرباط ، عدد ١٠ ،تموز ١٩٨٢
ـ أفكار، عدد ، ايلول ، ١٩٨٤ ،عمان .
ـ الاقلام: ع نيسان ، ١٩٧٨ ، بغداد
ـ الاقلام: ع٢ لسنه ١٩٨٢ ، بغداد
ـ اقلام : ع٥٦ نيسان (ابريل) ١٩٨٢ الرباط .
ـ الحياه الثقافية، عدد ايار(مايو) ١٩٨٠ ، تونس .
ـ الكرمل : ع ١١ ،سنه ١٩٨٤ ، تونس
ـ المعرفة، ع ٢١٩ ، السنة التاسعة عشرة، ايار (مايو) ١٩٨٠
ـ مواقف ، ع ٣٢ ، بيروت
ـ الموقف الادبي : ع١٠٤ و ١٠٥ كانون أول وكانون ثاني ، ١٩٧٨/١٩٧٩ ، دمشق .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المراجـــع الاجنبيـــة :

- Hall, John : The Sociology of literature, London (1977).

- Goldmann, Lucian: Method in the Sociology of Literature, Translated from French by: William Boelower, Basil Blackwell, Oxford, 1 edition (1981).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المحتـــوى

ـ الاهـــداء : ٢

ـ المقدمـــة : ٣

ـ الفصل الاول : معطيات منهجية حول علم الاجتماع الادبي ١٠ ـ من لوكاش الى غولدمان ١١ـ تطابق البنية الروائية والاجتماعية ١٣ـ مؤثرات بنيويـة ١٣ ـ المنهج البنيوى التكويني ١٤ ـ الاصل الثنائي للاعتقال الابداعية ١٦ ـ اعادة النظر في مفاهيم لوكاش ١٧ـ مفهـــوم الكلية ٢٠ ـ الذات غير الفردى ٢٣ ـ الوعي القائم والوعي الممكن ٢٤ خلاصة منهجية ٢٦ .

الفصل الثاني : السياق السوسيوتاريخي : ٢٨

لماذا الحماية؟ ٣٢ ـ الادارة الاستعمارية ٣٤ ـ مقاومة الاستعمار ٣٥ الطابع السياسي للمقاومة ٣٧ ـ ظهور الجمعيات الوطنية ٣٨ ـ ظهـور الوعي الطبقي ٣٩ ـ ظهور الإحزاب السياسية ٤١ ـ من الكتلـــة الوطنية الى حزب الاستقلال ٤٢ـ التنظيمات الحزبية بعد الاستقلال ٤٥ ـ حزب الاتحاد الوطني ٤٦ ـ احزاب أخرى ٤٧ـ الاحـــزاب والنزاع الايديولوجي ٤٩ .

الفصل الثالث: الروايـة المغربية فـي السياق الثقافي : ٥١

سوسيولوجية التعليم ٥٢ ـ سوسيولوجية القراءة ٥٦ ـ مؤثرات مـن الشرق ٥٨ ـ نشأة الفن القصصي وتطوره ٦٠ـ الرواية والصـراع الاجتماعي ٦٢ ـ النشاط الابداعي في الرواية ٧٢ ـ الدراســة السوسيو/ تاريخية ٦٥ .

الفصل الرابع : رؤية الواقـع على المستوى التاريخي ٦٦

دفنا الماضي لغلاّب والرؤية السلفية ٦٧ ـ الخلل التاريخي ٦٩ ـ صراع بين تيارين ٧١ ـ موت محمود ونقاء النخبة ٧٥ ـ منظور الكاتـب الايديولوجي ٧٦ ـ الريح الشتوية لمبارك ربيع ٧٧ ـ التحول الطبقـي في المدن ٨٠ ـ موت الحمدوني ونهاية الطور الرومانسي ٨١ـ ظهور الوعي النقابي ٨٢ ـ رواية "باموّ" والتأكيد على المنظور السلفـي ٨٣ شخصية من الواقع ٨٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الخامس : الكاتب والاستقلال والصراع الايديولوجي : ٨٨
الطيبون والجيل الحائر ٨٨ - مشكلات الجيل ومحنة المثقفين ٩٠
خيبة الطبقة الوسطى في رواية العروى ٩٤- استكمال الرؤية في " اليتيم " ٩٧ - الزمن المفيت لادريس الصغير ١٠٠ - أزمة البطل المغربي ١٠١ - تقويم الاوضاع في رواية " الابلة والمنسية وياسمين " ١٠٣ - طور آخر في الحكاية ١٠٩ - تفكيك الرموز من النص ١١٠ - رحلة البحث عن الواقع المهمّش ١١١ - رحيل البحر للتازى ١١٢ .
الفصل السادس : الكاتب والذات والكون القصصي : ١١٤
في الطفولة لعبد المجيد بن جلون ١١٥ - الخبز الحافي والنموذج المشرّد ١١٥ - بين السيرة الذاتية والرواية الادبية ١٢٢- خناثة بنونة والرغبة في تدمير العالم ١٢٣- توظيف الجنس في روايات محمد زفزاف ١٢٧- العلاقة بالغرب ١٢٨ - التمرد على العبث ١٢٩- محاولة عيش ١٣١ - رؤية فردية ١٣٣ .
الخاتمة : ١٣٤
- Abstract in English (138)
قائمة المصادر والمراجع : ١٤٠

٥٢٠/٦٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit